

آفات على الطريق

الدكتور : السيد محمد نوح

الجزء الرابع

الآفة الثانية والعشرون : المرء أو الجدل
الآفة الثالثة والعشرون: القعود
الآفة الرابعة والعشرون: الشح
الآفة الخامسة والعشرون: الغضب
الآفة السادسة والعشرون: الحقد
الآفة السابعة والعشرون: تنافس الدنيا
الآفة الثامنة والعشرون: الاحتقار أو الانهزام
النفسي

الآفة الثانية والعشرون المراء أو الجدال

الآفة الثانية والعشرون التي قد يبتلى بها نفر من العاملين، بل لقد ابتلوا بها بالفعل، وكانت وراء كثير مما نعاني نحن المسلمين العاملين لدين الله اليوم إنما هي: "المراء أو الجدال".

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلي بها، ويتوقاها من سلمه الله - عز وجل - منها، فإنه لابد من الوقوف على حقيقة أبعادها ومعالمها، وذلك من خلال الجوانب الآتية:

أولاً: تعريف المراء أو الجدال:

لغة

يطلق المراء في لغة العرب على معان عدة، أهمها:

1 - الشك، تقول: امترى في الشيء: تعني شك فيه، ومنه قوله سبحانه في التنزيل: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} (البقرة 147).

2 - مخالفة الغير والتلوي عليه أو عدم الوضوح معه، تقول:

مارى فلان فلانا، أي خالفه وتلوى عليه، أو لم يكن واضحاً معه.

3 - المناظرة والجدل، تقول: مارى فلان فلانا، أي ناظره وجادله، ومنه قوله سبحانه: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} (الكهف: 22).

4 - استخراج الشيء من مكمته، تقول: امترى الشيء، أي استخراج من مكمته، وامترى الناقة، أي حلبها واستخرج اللبن من ضرعها.

5 - التزين والتجمل، تقول: تمرى بالشيء، أي تجمل وتزين .
(1)

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعا، فإن المناظرة أو المجادلة قد تكون في ظاهرها قائمة على التجمل والتزين، ولكنها في باطنها تقوم على أساس استخراج ما عند الغير ومخالفته، بل والشك فيما يصدر عنه.

والجدل لغة: يطلق على معان عدة وأهمها:

1 - الصرع والغلبة، تقول: جدل الرجل، أي صرعه، وغلبه في الجدل.

2 - الإتيان والحسن، تقول: جدل الحبل جدلا، أي أحكم فتله وأتقن، وجارية مجدولة الخلق، أي حسنته.

3 - شدة الخصومة والمناقشة، تقول: جادله مجادلة وجدالا: ناقشه، وخاصمه، ومنه قوله سبحانه في التنزيل: { وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (النحل: 125).

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي آتَيْنَا وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (العنكبوت).

{ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } (المجادلة).

4 - مقابلة الحجة بالحجة، تقول: جادل فلان فلانا: قابل حجته بحجة من عنده . (2)

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعا، فإن إتيان وحسن الخصومة والمناقشة ينتهي إلى الصرع والغلبة غالبا.

اصطلاحا:

أما معنى المرء في اصطلاح الدعاة، فقد عرفه الغزالي في إحياء علوم الدين بقوله: "كل اعتراض على كلام الغير بإظهار

¹ - انظر: لسان العرب لابن منظور 6/4188 - 44191، مادة: "مرا" بتصرف كثير، والمعجم الوسيط 2/900، 901.

² - انظر: لسان العرب لابن منظور 1/569 - 5771، والمعجم الوسيط 1/111، مادة: "جدل" بتصرف كثير.

خلل فيه إما في اللفظ وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم" (3).

كما عرف الجدل بقوله: "قصد إفحام الغير، وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه"، وهو غالباً ما يكون في المسائل العلمية، أما المرء فهو عام في المسائل العلمية وغيرها. (4)

ثانياً: صور المرء أو الجدل، ووضعهما في ميزان الإسلام:

وللمراء أو الجدل صور أو أمارات يعرف بها كل واحد منهما وأهمها:

1 - الطعن في كلام الغير من حيث اللفظ، بإظهار خلل فيه من جهة النحو، أو من جهة اللغة، أو من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير.

2 - الطعن في كلام الغير من حيث المعنى، بأن يقول المماري: ليس الكلام كما تقول، وقد أخطأت فيه من وجه كذا، وكذا.

3 - الطعن في كلام الغير من حيث القصد، بأن يقول المماري لخصمه: هذا الكلام حق، ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه. (5)

والمرء أو الجدل على هذا النحو مذمومان، وذلك للنصوص الكثيرة الدالة على هذا، ومنها قوله تعالى: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} (الكهف).

{إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (الشورى).
{فَيَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّكَ تَتَمَارَى} (النجم).
{قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ مَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ}.

3 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/114.

4 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/114.

5 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/114.

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم).
{أَفْتُمَارُونَ عَلَيَّ مَا يَبْرَى} (النجم).

{وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ} (غافر).

{وَلَا تُجَادِلْ عَنَ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَاتِنًا أَتِيْمًا} (النساء).

{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام).

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ
اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} (غافر: 35).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيم ببیت في
ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا، وببيت في وسط
الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة
لمن حسن خلقه" ، (6) "ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا
أوتوا الجدل" ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية:
{مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} (الزخرف) ، (7)
"أبغض الرجال الألد الخصم" ، (8) إلى غير ذلك من النصوص
الدالة بصراحة ووضوح على ذم المراء أو الجدل.

"وهذا لا يمنع أن هناك نوعا من الجدل محمود، وهو ما كان
دعوة إلى حق أو إيضاحا وبيانا ودفاعا عن حق، وإلى ذلك
الإشارة بقوله تعالى:

{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ} (النحل: 125).

⁶ - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق 4/253 رقم (4800) من حديث
أبي أمامة به! مرفوعا، وأورده الشيخ ناب الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (273)، وعزاه
إلى أبي داود، وساق له شاهدا يرتقي به إلى درجة الحسن كما قال.

⁷ - الحديث أخرجه أحمد في المسند 5/252، 2566، والترمذي في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن
سورة الزخرف 5/353 رقم (3253) وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في السنن:
المقدمة: باب اجتناب البدع والجدل 1/19 رقم (48)، كلهم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه
مرفوعا بهذا اللفظ.

⁸ - الحديث أخرجه أحمد في المسند 6/55، 63، 205 من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا بهذا اللفظ.

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } (العنكبوت: 46).
 { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظَلَّمُونَ } (النحل).
 { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } (هود).

ثالثا: أسباب الوقوع في المراء أو الجدل:

وهناك أسباب أو بواعث توقع في المراء أو الجدل ونذكر منها:

1 - عدم رعاية آداب النصيحة:

وذلك أن للنصيحة في الإسلام آدابا، وأهمها: أن تكون في السر ما لم يجاهر بها صاحبها، وأن تكون بالأسلوب المناسب وفي اللحظة المناسبة، وأن تكون بنية الإصلاح والتغيير إلى ما هو أحسن، وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وأن يتجرد الناصح من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. وعدم رعايته هذه الآداب قد يولد في نفس المنصوح نوعا من العزة بالإثم، ويحاول التعبير عنها في شكل مراء أو جدل ليبرر به ما هو عليه من خطأ، ولا يقبل النصيحة.

2 - عدم الحظوة بثقة واحترام الآخرين:

وذلك أن المراء قد لا يحظى لسبب أو لآخر بثقة واحترام الآخرين سواء كان ذلك في البيئة القريبة - ونعني بها البيت - أم في البيئة البعيدة - ونعني بها المجتمع - ويكون هذا منزلقا أو مدخلا خطيرا للوقوع في المراء أو الجدل، كرد فعل يحاول به إثبات وجوده، وحمل الآخرين على الثقة به واحترامه.

ولعل هذا هو السر في منع الإسلام الكذب ولا سيما على الصغار ؛ لأنه يؤدي إلى سحب الثقة، أو نزع الهيبة والاحترام من نفوس الآخرين، يقول صلى الله عليه وسلم:

"عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" . (9) " من قال لصبي: تعال هاك، ثم لم يعطه فهي كذبة " . (10)

وعن رجل من موالى عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوي، أن عبد الله بن عامر حدثه فقال : دعنتي أمي يوما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما أردت أن تعطيه؟" قالت: أعطيه تمرا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة" . (11)

3 - الميل إلى الغلبة وعدم قبول الهزيمة:

وقد يكون الميل إلى الغلبة، وعدم قبول الهزيمة سببا من أسباب الوقوع في المرء أو الجدل؛ ذلك أن المرء قد يكون ميلا بطبعه إلى الغلبة، ولا يقبل الهزيمة، ويستخدم في سبيل تحقيق هذا الميل كل ما يتاح له من أسباب ووسائل، ويكون المرء أو الجدل واحدا من هذه الأساليب، وتلك الوسائل. ولعل هذا هو السر في دعوة الإسلام إلى الإنصاف من النفس، إذ يقول الله تبارك وتعالى:

⁹ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا مع الصادقين) (8/30، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم النميمة: وباب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله 4/2012، 2013 رقم (2607)، كلاهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا واللفظ لمسلم.

¹⁰ - الحديث أخرجه أحمد في المسند 2/452 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ.
¹¹ - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في التشديد في الكذب 4/298 رقم (4991) من حديث مولى من موالى عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوي، عن عبد الله بن عمر بن عامر رضي الله عنه قال : دعنتي أمي يوما... الحديث، غير أن مولى عبد الله مجهول.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ
أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ
بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (النساء)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (المائدة).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من جمعهن فقد جمع
الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من
الإقتار" . (12)

4 - البيئة المحيطة بالمرء :

وقد تكون البيئة التي ينشأ فيها المرء، قريبة كانت هذه البيئة -
ونعني بها البيت - أو بعيدة - ونعني بها المجتمع - هي السبب
في الوقوع في المرء أو الجدل ؛ ذلك أن المرء كثير ما يتأثر
بالجو المحيط به، ولا سيما إذا لم يكن قد أخذ حظه من التربية
على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم،
وتشيع هذه الآفة في هذا الجو، وحينئذ يقع فريسة لها، وبصير
من أخلاقه: المرء أو الجدل.

5 - التشويش على الحق والصواب :

وقد يكون التشويش على الحق والصواب، هو السبب في
الوقوع في المرء أو الجدل، ذلك أن المرء قد يكون على باطل
أو خطأ، ويرى شمس الحق ونور الصواب يغزوان هذا الباطل

¹² - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الإيمان: باب إفشاء السلام من الإسلام (معلقا) 1/14 قائلا:
"وقال عمار: "ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان"... الحديث، وقد وصله الحافظ ابن حجر في فتح الباري
1/82 قائلا: "وأثره هذا - أي أثر عمار بن ياسر أحد السابقين الأولين - أخرجه أحمد بن حنبل في كتاب
الإيمان من طريق... سفيان الثوري، ورواه يعقوب بن شيبه في مسنده من طريق شعبة وزهير بن معاوية،
وغيرهما، كلهم عن أبي إسحاق السبيعي، عن صلة بن زفر، عن عمار، ولفظ شعبة: "ثلاث من كن فيه فقد
استكمل الإيمان". وهو بالمعنى، وحدث به عبد الرزاق باخره، فرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم...
حتى قال: وله شواهد أخرى بينها في تعليق التعليق".

وذلك الخطأ، ويحاولان اقتحام العقل والقلب معا، وهو لا يريد ذلك لسبب أو لآخر، وحينئذ يجعل من المراء أو الجدل سبيلا للتشويش على الحق والصواب، على نحو ما قال المشركون لبعضهم البعض، وهم يتشاورون على كيفية مواجهة الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقد جكاه القرآن عنهم فقال: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } (فصلت).

وعلى نحو ما يصنعه الملحدون والعلمانيون والمشركون في مواجهتهم للإسلام في العصر الحاضر من استخدام المراء أو الجدل سبيلا لقلب الحقائق وإدانة الأبرياء، وتبرئة المتهمين، انطلاقا من قاعدتهم المعروفة: "واجه خصمك بالتشويش والتهويش تصب منه ولو إلى حين".

6 - الاشتغال بعلوم الجدل والمناظرة قبل التحصن بالكتاب والسنة:

وقد يكون الاشتغال بعلوم الجدل والمناظرة من المنطق والفلسفة، هو السبب في الوقوع في المراء أو الجدل ولا سيما قبل التحصن بالكتاب والسنة، ذلك أن هذه العلوم قائمة على الجدل، وتضييع الأوقات بغير طائل، أو بغير جهد يذكر، ومن اشتغل بها قبل أن يحصن نفسه بكتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يبتلى لا محالة بداء المراء أو الجدل. ولعل هذا هو سر اختلاف علماء المسلمين في حكم تعلم الفلسفة، والمنطق، فمن قائل بالجواز، وهو سيف الدين الآدمي، انطلاقا من أن الإنسان لديه عقل منحه الله إياه، يستطيع أن يزن به الأمور، وأن يميز به بين الحق والباطل، النافع والضار، ومن قائل بالمنع، وهو الحافظ أبو عمر؛ المعروف بابن الصلاح، انطلاقا من أن هذه العلوم تُعلم المراء أو الجدل، وتنتهي بالإنسان إلى الشك وربما إلى الإلحاد والعياذ بالله، ومن متوسط يجيزها إذا صارت لدى المسلم حصانة من

كتاب الله، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويمنعها إذا لم تتحقق هذه الحصانة حيث يخشى على المسلم حينئذ الشطط والفتنة في الدين، وهو قول الإمام النووي - رحمه الله تعالى.

7 - الإعجاب بالنفس بل الغرور :

وقد يكون الإعجاب بالنفس بل الغرور والتكبر، هو السبب في الوقوع في المراء أو الجدل؛ ذلك أن من كان معجبا بنفسه، بل مغرورا متكبرا يلجأ إلى كثير من الأساليب والوسائل ليحتفظ بما ارتضاه لنفسه من هذه الأمراض والآفات. ويعد المراء أو الجدل من أهم هذه الأساليب وتلك الوسائل، وهذا هو الذي صنعه إبليس - لعنه الله - عندما أمر مع الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وامتنع، وقال له ربه: { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ } (ص). عند ذلك رد على ربه في مراء وجدل قائلا: { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } (ص). ولعل ذلك هو ما أشار إليه رب العزة حين قال: { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } (غافر: 56).

8 - فراغ القلب من معرفة الله وتقواه:

وذلك أن القلب إذا فرغ من معرفة الله وتقواه، بمعنى مراقبته وخوفه ورجائه، بصورة تحمل على الاستقامة، دخلت الدنيا هذا القلب، وتربعت على عرشه، ووسوس الشيطان، وبرزت النفس الأمارة بالسوء، وهنا يكون الاشتغال بما لا يسمن ولا يغنى من جوع من المراء أو الجدل، ومن الخصومة بالباطل وهكذا، ولهذا دعا رب العزة عباده إلى مقاومة الفراغ بتنوع العبادة لئلا تسأم النفس أو تمل، ويكون الفتور أو القعود، الأمر

الذي ينتهي بالوقوع في حبال المرء أو الجدل فقال سبحانه: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} (الشرح).
يقول الحافظ ابن كثير- تعليقا على هاتين الآيتين وتفسيرا لهما بما أثر عن السلف: "أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطا فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة، وقال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتم إلى الصلاة فانصب لربك، وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وفي رواية عنه: فانصب بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس، وقال ابن عباس: فإذا فرغت فانصب في الدعاء، وقال الضحاك: فإذا فرغت، أي من الجهاد، فانصب، أي في العبادة. وإلى ربك فارغب: قال الثوري: اجعل نيتك، ورغبتك إلى الله عز وجل". (13) ويقول العلامة الألوسي - رحمه الله: "وأشعرت الآية بأن اللائق بحال العبد أن يستغرق أوقاته بالعبادة... وذكروا أن قعود الرجل فارغا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة. وعن عمر رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغا سهللا لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته. وروي أن شريكا مر برجلين يصطرعان، فقال: ما بهذا أمر الفارغ". (14)

9 - عدم وجود برنامج يواكب ويمتص الطاقات:

وقد يكون عدم وجود برنامج يواكب ويمتص الطاقات لدى المرء، هو السبب في الوقوع في المرء أو الجدل؛ ذلك أن نفس المرء إن لم يشغلها بالنافع شغلته بالضرار. وقد حدد الإسلام برنامجا يستوعب حياة المسلم في اليوم والليلة، وفي الأسبوع، وفي الشهر، وفي السنة، وفي العمر كله بحيث إذا حافظ عليه لم تبق لديه دقيقة تستغل في مرء أو

13 - انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 528//4.

14 - انظر: روح المعاني للألوسي 30/172.

جدل، كما شدد الإسلام على الأئمة أن يستفرغوا كل ما في وسعهم وكل ما في طاقتهم، من أجل أن يستنبطوا ما يملأ على المسلم حياته بالعمل الجاد المثمر وإلا حرموا الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة" . (15)

10 - الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على المراء أو الجدل:

وأخيراً، قد تكون الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على المراء أو الجدل هي السبب في الوقوع في المراء أو الجدل، فإن من غفل عن الآثار الضارة، والعواقب المهلكة لأي أمر من الأمور أدت به هذه الغفلة إلى الوقوع في هذا الأمر . ولعل هذا من بين الأسرار التي من أجلها تأتي أحكام كثيرة في التشريع الإسلامي مقرونة بحكمة التشريع، ولعل هذا هو السر كذلك في كثرة التكرار ودوام التذكير، بل الأمر به في قوله سبحانه:

{ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } (الذاريات).
{ فَذَكِّرْ إِنَّ تَفَعْتُ الذِّكْرَ } (الأعلى).

رابعاً: آثار المراء أو الجدل:

وللمراء أو الجدل آثار ضارة وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه الآثار وتلك العواقب:

أ - على العاملين:

فمن آثار المراء أو الجدل على العاملين:

¹⁵ - سبق تخرجه في الجزء الأول، آفة: الاستعجال.

1 - قسوة القلب:

ذلك أن المرء أو الجدل مبني على الكلام الكثير الذي لا فائدة ترجى من ورائه، ولا طائل تحته سوى إفحام الخصم، والغلبة عليه ولو بالباطل . وكثرة الكلام بغير ذكر الله فيها قسوة للقلب، فكيف لو كانت بالباطل، وقد جاء في الحديث: " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي " .⁽¹⁶⁾

وقال مالك بن أنس - رحمه الله - إمام دار الهجرة: " المرء يقسّي القلوب... " .⁽¹⁷⁾

2 - إغصاب الآخرين، الأمر الذي يؤدي إلى البغض

والقطيعة والتأمر:

وذلك أن من يشتغل بالمرء أو الجدل ينسى العمل ويركز على القول، ولا بركة في قول لا يصحبه عمل، كما قال الله عز وجل: { كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } (الصف). إذ في ذلك قطع للعبد عن ربه، فيقسو القلب، ويكون الغضب، بل البغض والقطيعة والتأمر من الآخرين.

وقد وعى هذا الأثر لقمان الحكيم فقال يوصي ولده: " يا بني، لا تجادل العلماء فيمقتوك... " .⁽¹⁸⁾

كما وعاه الإمام مالك فقال: " المرء يقسي القلب، ويورث الضغائن " .

ووعاه سفيان الثوري فقال: " لو خالفت أخي في رمانة، فقال: حلوة، وقلت: حامضة لسعي بي إلى السلطان " ،⁽¹⁹⁾ وقال

¹⁶ - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب (61) 4/525 رقم (2411) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب عليه الترمذي بقوله: " هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب " .

¹⁷ - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/176.

¹⁸ - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/176.

¹⁹ - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/176.

أيضا: "صاف من شئت ثم أغضبه بالمرء، فليرمينك بداهية تمنعك العيش". (20)

3 - ضياع الهيبة وسقوط المروءة:

وذلك أن المرء أو الجدل يحمل صاحبه على أن يكشف عن كل أوراقه، ويرمي خصمه بكل ما يستطيع، وإذا كشف المرء عن كل أوراقه، ورمى خصمه بكل ما يستطيع ضاعت هيئته، وسقطت مروءته لا محالة، إذ المرء كما قيل: مخبوء تحت لسانه، وفي هذا يقول عيسى عليه السلام: "من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته...". (21)

4 - عدم أمن الفتنة في الدين:

وذلك أنه كثير ما تعترض الشبهات طريق المرء أو المجادل وقد لا يتمكن من الرد على هذه الشبهات، وحينئذ يتسرب الشك إلى نفسه، وقد يقوى هذا الشك إلى حد الفتنة وترك الدين والعياذ بالله، وماذا بقي للمرء بعد الفتنة وضياع الدين؟! وقد وعى هذا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود فقال: "ذروا المرء، فإنه لا تفهم حكمته، ولا تؤمن فتنته...". (22) كما وعاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قال: "من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل". (23)

ب - على العمل الإسلامي :

ومن آثاره على العمل الإسلامي:

20 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/176.

21 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/176.

22 - الحديث أورده الغزالي في إحياء علوم الدين 3/175، وعلق عليه العراقي في المغني بهامش الإحياء 3/175 قائلا: "أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء، وأبي إمامة، وأنس ابن مالك، ووائلة بن الأسقع بإسناد ضعيف دون قوله: لا تفهم حكمته، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفا على ابن مسعود".

23 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي: 3/176..

1 - الفرقة والتمزق:

وذلك أن من أورثه المرء أو الجدل: قسوة القلب، وإغصاب الآخرين إلى حدّ البغض والقطيعة، والتآمر، وضياح الهيبة، وسقوط المروءة، وعدم أمن الفتنة في الدين، لا يمكن أن يتألف قلبه مع قلوب العاملين لدين الله ممن سلمهم الله من هذه الآفة فتكون القطيعة والفرقة.

2 - تمكن العدو مع طول الطريق وكثرة التكاليف:

وحيث تكون القطيعة والفرقة يتمكن العدو منا، وتطول الطريق، وتكثر التكاليف، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، وواقع العاملين اليوم يشهد بذلك، إذ الاختلاف حول أسلوب العمل إلى حد المرء أو الجدل هو الذي أدى إلى القطيعة والفرقة، ومن ثم تمكن الأشرار، وطالت الطريق، وكثرت التكاليف.

خامسا: طريق العلاج بل الوقاية من المرء أو الجدل:

وعلى ضوء ما قدمنا يمكن رسم طريق العلاج بل الوقاية من المرء أو الجدل على النحو التالي :

1 - ملء القلب بمعرفة الله وتوحيده وتقواه، فإن ذلك من شأنه أن يقضي بل يقى النفس من الوقوع في سائر الآفات، ومنها هذه الآفة، ويعين على ذلك التدبر في نعم الله التي تغمرنا من أعلى إلى أدنى، ظاهرة كانت أو باطنة، وذلك من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكذلك من خلال النظر في الكون. وفي القرآن الكريم ما يؤكد هذه الوسيلة إذ يقول - سبحانه: {كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} (النحل).
{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (الذاريات)، كما يعين على ذلك الاستقامة المتمثلة في ترك

المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها، ثم المحافظة على الفرائض، والمواظبة على النوافل.

2 - رعاية الآداب الإسلامية التي لا بد منها في النصيحة من ضرورة أن تكون في السر لمن لم يجاهر بها، وأن تكون بالأسلوب المناسب وفي اللحظة المناسبة، وأن تكون بنية الإصلاح والتغيير لما هو أحسن، وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وأن يتجرد الناصح من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، إلى غير ذلك من الآداب التي يجمعها قوله سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (النحل: 125)

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } (يوسف: 108)

{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } (طه).

فإن رعاية هذه الآداب من شأنها أن تقضي على المرء أو الجدل، والقصة التالية خير ما يشرح ذلك:

"أصاب المأمون بخراسان كانوا من ذهب مرصعا بجواهر كثيرة، قيل: إنه كان ليزدجر بن شهريار الفارسي، لا تعرف قيمته لكثرتها، فقال ذو الرياستين: الفضل بن سهل الصولت - وكان من دعاة الشعوبية: يا أمير المؤمنين، الرأي أن تجعله في الكعبة يوحد عليه العود، والند بالليل والنهار، فقال المأمون: أفعل، وأمر بحمله إلى مكة، واتصل الخبر بيزيد بن هارون المحدث، فأمر مستمليه أن يقف يوم الخميس عند اجتماع الناس، وأصحاب الحديث فيشكر المأمون، ويدعو له، ويخبر بخبر الكانون، ففعل المستملي ذلك، فلما سمع يزيد كلامه، صاح وانتهره، وقال له: ويلك، أسكت، إن أمير المؤمنين أجل قدرا، وأعلم بالله - عز وجل - من أن يجعل بيته بيت نار، فكب أصحاب البريد إلى المأمون، فأمر بكسر الكانون، وبطل ما دبره ذو الرياستين" . (24)

24 - انظر: الفوائد من فرائد الفوائد للدكتور: مصطفى السباعي ص 98 نقلا عن الفرغاني .

3 - إشعار الغير بالاحترام والتوقير حتى مع اختلاف الفكر وتعارض الرأي، فإن ذلك من شأنه أن يقضي على الإصرار أو العناد المتمثل في المراء أو الجدل، وحسبنا أن النبي صلى الله عليه وسلم رد على عتبة بن ربيعة لما جاء رسولا من قبل قريش يريد إثناؤه صلى الله عليه وسلم عن دعوته، عن طريق الاحتواء بواسطة الدنيا ممثلة في الشرف والسؤدد، والوجاهة والملك، والمال، والمداواة من الأمراض والعلل إن كانت هي مصدر ما يحدثهم به من شئون الوحي، رد عليه صلى الله عليه وسلم في أدب واحترام وتوقير، مع اختلاف فكر، ورأي كل واحد منهما على الآخر بقوله: "قل أبا الوليد أسمع لك"، "أفرغت أبا الوليد؟" الأمر الذي كان سببا في امتصاص ما عند عتبة من إصرار أو عناد أو ما نسميه بالمراء أو الجدل حتى إذا سمع آيات من كتاب الله، وفي آخرها إنذار بالعذاب على نحو ما وقع لعاد وثمود خاف وأمسك بفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ناشدتك الله والرحم إلا ما أمسكت، فإني أخشى أن تنزل علي هذه الصاعقة .⁽²⁵⁾

ثم عاد إلى قومه يطلب منهم أن يخلوا بين النبي وبين ما يقول، إذ لا يمكن أن يكون ما سمع من قول البشر.

وحسبنا أيضا موقف الشيخ حسن البنا - رحمه الله - من كثير من مخالفيه ومعارضيه من أبناء عصره، ولا سيما الدكتور طه حسين، حيث كان يمنحهم مع اختلافه معهم حقهم من الاحترام والتقدير، الأمر الذي قطع عليهم طريق المراء أو الجدل.

إذ يذكر المعاصرون للشيخ حسن البنا: أنه لما نشر طه حسين كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر"، وضمَّنه ما يجب أن تتجه إليه الثقافة في مصر من ضرورة الأخذ بالحضارة الغربية: خيرها وشرها، حلوها ومرها، هاجت الدنيا وماجت، وتناولت أقلام النقاد الكاتب بين قاذح ومادح، ولم يكثر طه حسين بكل

²⁵ - انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحى 2/447 - 450 بتصرف كثير.

ما كتب وصمم على وضع آرائه في الكتاب موضع التنفيذ باعتبارَه مستشار وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن)، وهنا اتصل بعض الغيورين من أصدقاء الشيخ حسن البنا به، وطلبوا إليه أن يكتب نقداً للكتاب، ورد الشيخ حسن البنا بأنه لم يطلع على الكتاب لضيق وقته وكثرة الصوارف، وألحوا عليه في ضرورة قراءة الكتاب، وبيان كلمة الإخوان قبل أن يوضع الكتاب موضع التنفيذ، لا سيما وأنه سيؤدي إلى تغيير جذري في سياسة البلد الثقافية، ولم يكتفوا بذلك، بل أخبروه أنهم حددوا موعداً لبيان ذلك في دار الشبان المسلمين وطبعوا الدعوات، وكان الموعد بعد خمسة أيام، يقول الشيخ حسن البنا: ولم أكن أستطيع التحلل من مواعيد كنت مرتبطاً بها في خلال هذه الأيام الخمسة، وعليه فما كنت أجد وقتاً لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبي الترام في الصباح إلى مدرستي، وفترة رجوعي منها في الترام - وكان يعمل في مهنة التدريس - وقدر الله، وأتيت على الكتاب من أوله إلى آخره؟ لأنه لم يكن كبير الحجم، وكنت أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة، ولم تمض الأيام الخمسة حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله، وفي الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان، فوجدتها على غير عاداتها خاصة، والحاضرون هم رجالات العلم، والأدب، والتربية في مصر، ووقفت على المنصة، واستفتحت بحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبجانبني الدكتور يحيى الدرديري السكرتير العام للشبان المسلمين، ورأيت الكتاب كله منطبعا في خاطري بعلماتي التي كنت علمتها بالقلم الرصاص .

قال: وبدأت أول ما بدأت، فقلت: إنني لن أنقد هذا الكلام من عندي وإنما سأنقد بعضه ببعض، وأخذت - ملتزماً بهذا الشرط - أذكر العبارة من الكتاب، وأعارضها بعبارة أخرى من نفس الكتاب، ولاحظ الدكتور الدرديري أنني في كل مرة أقول: يقول الدكتور طه في الكتاب في صفحة كذا، وأقرأ العبارة بنصها من خاطري، ثم أقول: ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول في صفحة

كذا، وأقرأ العبارة بنصها أيضا من خاطري، فاستوقفني الدكتور الدرديري، وطلب إلي أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معي النصوص والصفحات لأنه قرأ الكتاب، ولم يلاحظ فيه هذا التناقض، وكأنه لم يقرأ العبارات التي يسمعا الآن، وجيء له بالكتاب وظل يتابعني، فيجد العبارات لا تنقص حرفا ولا تزيد حرفا، ويجد الصفحات كما أحدها تماما، فكاد الدكتور الدرديري يجن، كما ساد الحاضرين جو من الدهشة والذهول، والكل يتجه -كلما قرأت من خاطري عبارتين متناقضتين - إلى الدكتور الدرديري، كأنهم يسألونه: أحقا هذه العبارات في الكتاب؟ فيقول الدكتور الدرديري في كل مرة: بالنصوص والصفحات.

وهكذا حتى انتهى الكتاب وانتهت المحاضرة، وقام الجميع وفي مقدمتهم الدكتور: الدرديري بين معانق ومقبل، يقول الشيخ حسن البنا: ولما هممت بالانصراف رجاني الدكتور الدرديري أن أنتظر برهة؟ لأنه يريد أن يسرَّ حديثا، واقترب مني وأسر في أذني سرا تعجبت له. قال: لما نشرنا عن موضوع محاضرتك وموعدها اتصل بي الدكتور: طه حسين، وطلب إلي أن أعد له مكانا في هذه الدار يستطيع فيه أن يسمع كل كلمة تقولها دون أن يراه أو يعلم بوجوده أحد، فأعدنا له المكان، وحضر المحاضرة من أولها إلى آخرها ثم خرج دون أن يراه أو يعلم به أحد.

وفي اليوم التالي: طلب الدكتور طه حسين من أحد موظفي وزارة المعارف، وكان على صلة وثيقة بالشيخ حسن البنا، أن يرتب له اجتماعا مع الشيخ حسن البنا في أي مكان بحيث لا يكون معهما أحد، وبحيث لا يعلم بهما أحد، وليكن هذا المكان في بيته أو بيتي، أو في مكتبي هنا، ووافق الشيخ حسن البنا ورأى أن يكون الاجتماع في مكتبه بالوزارة، وتم الاجتماع، وبدأه الدكتور طه حسين بقوله: لعلك يا أستاذ حسن لا تعلم بأنني حضرت محاضرتك، وبأنني كنت حريصا على حضورها، وعلى

الاستماع إلى كل كلمة تقولها، لأنني أعرف من هو حسن البناء، وأقسم لك لو أن أعظم عظيم في مصر كان في مكانك ما أعرتة اهتماما، قال الشيخ حسن البناء: فشكرته ثم سألته عن رأيه في المواضيع التي وجهت النقد إليها في الكتاب، وهل لديه من ردِّ عليها؟

قال الدكتور طه حسين: ليس لي ردٌّ على شيء منها، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك، وهذا هو ما عناني مشقة الاستماع إليك، ولقد كنت أستمع إلى نقدك لي، وأطرب... وأقسم يا أستاذ حسن لو كان أعدائي شرفاء مثلك لطأطأت رأسي لهم، لكن أعدائي أخسَاء، لا يتقيدون بمبدأ ولا بشرف، إن أعدائه هم الأزهريون وقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يمحووا اسمي من التاريخ، وقد كرست حياتي لإحباط مكابدهم، وهأنذا بحمد الله في الموضوع الذي تقطع أعناقهم دونه... ليت أعدائي مثل حسن البناء؟ إذن لمددت لهم يدي من أول يوم" . (26)

أرأيت كيف يصنع الاحترام والتقدير للآخرين حتى مع اختلاف الفكر، وتباين الرأي؟ إنه يمتص من نفوسهم المرء أو الجدل على النحو الذي نطق به هذا المقال.

4 - تدبر نظرة الإسلام إلى المرء أو الجدل، وذلك بدوام النظر في الآيات والأحاديث الواردة في كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم حول هذه الآفة، فإن لذلك دورا كبيرا في علاج النفس بل حمايتها من المرء أو الجدل.

5 - تحري العيش في وسط سليم من المرء أو الجدل، فإن ذلك يعين النفس بل يحفظها من الوقوع في غوائل هذه الآفة.

6 - قيام الأمة وولي الأمر بواجبهما نحو هذا الصنف من الناس، كل بما يتناسب مع طاقاته وإمكاناته، فالجميع ينصحون،

وينكرون بالسنتهم، وولي الأمر يتولى التعزير إن اقتضى المقام ذلك، والأمة تعتزل وتقاطع، حتى تستقيم حال هؤلاء، وقصة عمر من صبيغ بن عسل برهان عملي على صحة ما نقول، إذ

26 - انظر: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ 1/239 - 242.

تحكي كتب التاريخ: أن صبيغ بن عسل جعل يسأل عن متشابه القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقراه، فقال: أين الرجل؟ أبصر لا يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الوجيعة . فأتي به، فقال عمر: "سبيل مُحَدَّثَة" أي بدعة جديدة، فأرسل إلي رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة (أي قرحة)، ثم تركه حتى برئ ثم عاد له، ثم تركه حتى برئ، فدعا به ليعود.

فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: ألا يجالسه أحد من المسلمين . قال أبو عثمان النهدي: فلو جاءنا ونحن مائة لتفرقنا عنه. وقال زرعة: رأيت صبيغا كأنه أجرب، يجيء إلى الحلقة ويجلس وهم لا يعرفونه، فتناديهم الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين عمر، فيقومون، ويدعونه، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر، أنه قد حسن أمره، فكتب إليه عمر: أن ائذن للناس بمجالسته . (27)

7 - مجاهدة الآباء والأمهات أنفسهم كي يتطهروا من هذه الآفة إن كانوا مصابين بها، فإن عجزوا مع أنفسهم، فليكن ظهورها في أضيق الحدود وبعيدا عن أعين الأبناء لئلا تتسرب العدوى إليهم، فيكونون من الدعاة إلى الشر والضلالة، يحملون إثم أنفسهم وإثم من اقتدى بهم، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: (... ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" . (28)

27 - انظر: تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران 6/3885 وعنه نقل الطنطاويان في أخبار عمر ص 190، 191.
28 - الحديث أخرجه البخاري مختصرا في الصحيح: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة 127/9، ومسلم في الصحيح: كتاب العلم: باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدي أو ضلالة 4/2060 رقم (2674)، وأبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في لزوم السنة 4/201 رقم (2609)، والترمذي في السنن: كتاب العلم: باب ما جاء فيمن دعا إلى هدي... إلخ 5/42 رقم (2674)، وابن ماجه في السنن: المقدمة: باب من سن سنة حسنة أو سيئة 1/75 رقم (206)، وأحمد في المسند 2/397، 505 كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه، وأوله كما في مسلم: "من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا..." الحديث .

- 8 - علاج أو مداواة النفس من الإعجاب، بل الغرور، بل التكبر على نحو ما جاء في طريق الخلاص من هذه الآفات في الجزء الأول، فإن النفس إذا سلمت من هذه الآفات، تداوت أو عولجت من كل ما يترتب عليها من آثار ولا سيما المرء أو الجدل.
- 9 - البعد عن الاشتغال بعلوم الجدل والمناظرة، وإذا كان ولا بد من الاشتغال بهذه العلوم، فليكن بعد التحصُّن، والتحصن الشديد بكتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهما عصمة وأمان من كل شر أو فتنة.
- 10 - التحرك من خلال منهج يسد الفراغ، ويعمل الطاقات، ويربط النفس بربها: باريها، ومالكها، والمتصرف فيها حتى لا توجد لحظة فراغ تستغل من قبل شياطين الجن والإنس في تدنيس النفس بهذه الآفة، ولا سبيل لذلك بصورة تامة دقيقة إلا في حضن جماعة مسلمة جامعة لصفات وضوابط الجماعة المسلمة حقا.
- 11 - مجاهدة النفس، وتعويدها على الجرأة والشجاعة في الاعتراف بالخطأ وقبول الحق من الغير وإن كان مرا، إذ الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل، والمهم هو ظهور الحق بغض النظر: على لسان من ظهر هذا الحق؟ فإن مثل هذه المجاهدة تساعد كثيرا في علاج بل سلامة النفس من هذه الآفة.
- 12 - تذكر العواقب والآثار المترتبة على المرء أو الجدل، فإن المرء إذا أدرك العواقب الضارة والآثار المهلكة لأي عمل من الأعمال امتنع عن الإتيان بهذا العمل، خشية أن تصيبه هذه العواقب وتلك الآثار.
- 13 - الاستعانة التامة بالله عز وجل عن طريق ذكره الدائم المستمر، بالعقل، وباللسان، وبالقلب، وبالجوارح وبالسلوك، فإن الله بيده مقاليد السموات والأرض، وهو سبحانه يعين من استعان به ولجأ إليه إن كان صادقا في هذه الاستعانة وفي هذا اللجوء.

قال تعالى: { قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ... } (المؤمنون).
{ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ... } (البقرة: 152).

14 - دوام النظر في سير السلف، وكيف كان بعدهم عن المرء أو الجدل، بل كراهيتهم، ومقاطعتهم لمن ابتلوا بذلك، ولكن بعد الإرشاد وبذل النصيحة.

15 - معاملة من يخالفوننا في الرأي على أن رأينا صواب يحتمل الخطأ، وأن رأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب، فإن المعاملة بهذه الصورة من شأنها أن تستل الأحقاد من الصدور، وأن تقضي على المرء أو الجدل.

16 - رؤية الكلام على أنه من العمل، فإن من يرى كلامه من عمله يقل كلامه إلا فيما يعنيه، وبذلك يغلق باب واسع من أبواب المرء أو الجدل.

الآفة الثالثة والعشرون القعود

والآفة الثالثة والعشرون التي قد يبتلى بها نفر من العاملين لدين الله بل لقد أصيب بها بالفعل نفر من هؤلاء، وكانت وراء تمكن الباطل وإحكامه القبضة حول أعناقنا إنما هي: "القعود". وحتى يتطهر منها من ابتلى بها، وبقي نفسه من سلمه الله - عز وجل - منها، فإنه لابد من إعطاء تصور صحيح واضح عنها، وذلك على النحو التالي:

أولاً: تعريف القعود:

لغة

يأتي القعود في لغة العرب على معان، منها:

- 1 - الجلوس بعد قيام، نقول: قعد فلان: جلس بعد أن كان قائماً.
- 2 - الانقطاع والترك للأمر، أو التأخر عنه، نقول: قعدت المرأة عن الحيض والولد: انقطعت، وقعد عن الأمر: تركه أو تأخر عنه.
- 3 - الاحتباس عن الشيء، نقول: ما قعدك عن الأمر، وأقعدك، أي ما حبسك .
- 4 - عدم الاهتمام بالأمر، نقول: قعد عن الأمر: ليس مهتماً به .
- 5 - الداء يصيب الجسد فيقعده، وقيل: داء يأخذ في أوراك الإبل، فيميلها إلى الأرض أو هو الزمّن الذي لا يشفى . ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، فإن الداء حين يصيب الجسد ويتمكن منه، يعوق صاحبه عن مواصلة السير، فإذا هو قاعد أو منقطع، أو على الأقل متأخر مع عدم اكتراث واهتمام .

(29)

²⁹ - انظر لسان العرب لابن منظور 3/357 - 3644، والمعجم الوسيط 2/748، 749 مادة: "قعد" بتصرف كثير.

اصطلاحاً:

والقعود في اصطلاح الدعاة العاملين لدين الله: مرض يصيب الداعية من داخله يعوقه عن مواصلة السير في الطريق إلى نهايتها، فإذا هو قاعد أو منقطع، أو على الأقل متأخر عن الركب دون اكتراث أو مبالاة واهتمام.

يقول ابن عطيّة - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: {وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} (التوبة) والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما في قول الشاعر:

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي . (30)

ويقول العلامة الألوسي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: "تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود فيهم، وإلقائه سبحانه كراهة الخروج في قلوبهم بالأمر بالقعود، أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك، فليس هنا قول حقيقة، ونظير ذلك قوله سبحانه: {فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} - أي أماتهم - ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم في القعود، فالقول على حقيقته. والمراد بالقاعدين: الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت كالنساء، والصبيان، والزّمنى - أي المرضى مرضاً مقعداً - أو الرجال الذين يكون لهم عذر يمنعهم عن الخروج، وفيه على بعض الاحتمالات من الذم ما لا يخفى على متدبر" . (31)

وواضح أن بعض الاحتمالات التي توجب الذم في نظر الألوسي ما عبّر عنه بقوله: "ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض".

ثانياً: مظاهر القعود، وقيّمته في ميزان الإسلام:

وللقعود مظاهر وصور تدل عليه، وأهم هذه المظاهر، وتلك الصور:

³⁰ - انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 8/195.

³¹ - انظر: روح المعاني 10/4/222.

1 - ترك منهج الله بالمرّة، والتحاكم إلى مناهج البشر، وهذا وإن كان قليلا لكنه - كما يشهد الواقع - موجود.

2 - ترك الدعوة إلى الله، مع الاستقامة في النفس والأهل والولد.

3 - التفرغ لإيذاء العاملين لدين الله: تارة بانتقاصهم، والظعن في أشخاصهم، وفي ذواتهم، وتارة بانتقاصهم، والظعن في مناهجهم، وتارة بتأييد من ينتقصونهم، ويطعنون فيهم تلويحا أو تصریحا، وتارة بغير ذلك من السباب، والشتائم، بل ربما الإيذاء البدني.

4 - السعي لتمزيق صف العاملين لدين الله: تارة بوضع منهاج يوافق منهج الله في الشكل، ويجافي ويختلف معه في المضمون والجوهر، ثم دعوة الناس لا سيما الشباب للانضواء تحت لواء هذا المنهاج المبتدع، وتارة بالدخول في هذا المنهج، ثم بالخروج منه، والإشاعة بين الناس أنه ما خرج إلا لفساد المنهج.

5 - الركون إلى الظالمين بصورة أو بأخرى، ثم الدفاع عن هؤلاء الظالمين بكل الأساليب، والوسائل.

6 - الاطلاع على بعض أخطاء العاملين - "وكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" - ثم نشر هذه الأخطاء، وإعلانها على الملأ من الناس.

7 - ليُّ النصوص، أو استخدامها في غير موضعها، أو نقلها نقلا مشوّها بصورة تعبر عن مكنون ما في النفس من الحقد والكراهية لدين الله، وللعاملين بهذا الدين ولهذا الدين، إلى غير ذلك من المظاهر والصور.

والقعود بهذه المظاهر، وتلك الصور، مذموم في دين الله، ويكفيه ذما أن الله جعله من صفات وخصائص المنافقين إذ يقول سبحانه: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي نَفْسِي كَمَا أَمَرْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (آل عمران).

أخرج ابن جرير عن السُّدِّي قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلاثمائة، فتبعهم أبو جابر السُّلمي يدعوهم، فلما غلبوه، وقالوا له: ما نعلم قتالا، ولئن أطعنا لترجعن معنا، قال: فذكر الله أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول: قول عبد الله أبي جابر بن عبد الله الأنصاري حين دعاهم، وردَّهم، فقال: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} الآية . (32)

وأخرج ابن جرير أيضا، وابن المنذر عن قتادة في قوله: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا} الآية، قال: "ذكر لنا أنها نزلت في عدو الله، عبد الله بن أبي" . (33)

ويقول سبحانه - حكاية عن قوم موسى مع موسى حين طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، ولا يترددوا، فخافوا، وامتنعوا - قال: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة).

يقول الألوسي: "فاذهب - أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب - أنت وربك فقاتلا - أي فقاتلاهم، وأخرجاهم حتى ندخل الأرض، وقالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه، وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وعدم مبالاة، وقصدوا: ذهابهما، حقيقة، كما ينبئ عنه غاية جهلهم، وقوة قلوبهم، والمقابلة بقوله تعالى: {إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} . (34)

ويقول سبحانه: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَافْعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} (التوبة).

يقول ابن جرير الطبري: "يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فإن ردك الله يا محمد إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه، فاستأذنوك للخروج معك في أخرى غيرها، فقل لهم: لن تخرجوا أبدا، ولن تقاتلوا عدوا، إنكم رضيتم

32 - انظر: جامع البيان في تفسير القرآن 111/3/4، 112، وعنه نقل السيوطي في الدر المنثور 2/370.
33 - انظر: جامع البيان في تفسير القرآن 111/3/4، 112، وعنه نقل السيوطي في الدر المنثور 2/370.
34 - انظر: روح المعاني 6/2/108.

بالقعود أول مرة، وذلك عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم لأنكم منهم، فاقتدوا بهديهم، واعملوا مثل الذي عملوا من معصية الله فان الله قد سخط عليكم" . (35)

وأيد ما قال بالمأثور، قائلا: " حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفر في الحر، وذلك في غزوة تبوك، فقال الله: { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } (التوبة). فأمره الله بالخروج، فتخلف عنه رجال، فأدركتهم نفوسهم، فقالوا: والله ما صنعنا شيئا، فانطلق منهم ثلاثة، فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتوه تابوا، ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله: { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ } إلى قوله: { وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هلك الذين تخلفوا"، فأنزل الله عذرهم لما تابوا، فقال: { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ } إلى قوله { إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (التوبة) وقال: { إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ } (36)

ثم ساق أثارا أخرى في غير هذا المعنى، وعاد فقال: "والصواب من التأويل في قوله: { الخالفين } ما قال ابن عباس" . (37)

ويقول سبحانه: { وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } (التوبة: 86، 87).

يقول ابن جرير: "يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل عليك يا محمد سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: { آمِنُوا بِاللَّهِ } يقول: صدقوا بالله، { وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ } يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، استأذنتك أهل الغنى والمال منهم في التخلف عنك، والقعود في أهله، { وقالوا ذرنا } يقول: وقالوا لك: دعنا نكن ممن يقعد في منزله مع

35 - انظر: جامع البيان 10/6 / 140، 141.

36 - انظر: جامع البيان 10 / 6 / 140، 141 .

37 - انظر: جامع البيان 10 / 6 / 140، 141 .

ضعفاء الناس ومرضاهم، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر" . (38)

ويقول سبحانه: { وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (التوبة).

ويقول سبحانه: { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } (النساء).

يقول ابن جرير الطبري: "يعنى جل ثناؤه بقوله: { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ } لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله، وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حر الأسفار، والسير في الأرض، وشقة ملاقات أعداء الله بجهادهم في ذات الله، وقتالهم في طاعة الله، لا أهل العذر منهم، بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العلل التي لا سبيل لأهلها، للضرر الذي بهم، إلي قتالهم وجهادهم في سبيل الله { وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، ومنهاج دينه، لتكون كلمة الله هي العليا، المستفرغون طاقتهم في قتال أعداء الله، وأعداء دينهم { بأموالهم } إنفاقا لها فيما أوهن كيد أعداء أهل الإيمان بالله، وبأنفسهم مباشرة بها قتالهم بما تكون به كلمة الله هي العالية وكلمة الذين كفروا السافلة" . (39)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رابط يوما أو ليلة كان له كصيام شهر للقاعد، ومن مات مرابطا في سبيل الله، أجرى الله له أجره، والذي كان يعمل: أجر صلاته وصيامه،

38 - انظر: جامع البيان 10/6/143 .

39 - انظر: جامع البيان 114 /5/4 .

ونفقته، ووقى من فتان القبر، وأمن من الفرع الأكبر" . (40)
إلى غير ذلك من النصوص.
والآيات وإن كان أكثرها في المنافقين إلا أنها توحى من طرف
خفي بدم القعود مطلقا بغير عذر مقبول، سواء انتهى بصاحبه
إلى أن يكون منافقا كهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآيات، أو
انتهى به إلى أن يكون مسلما مرتكبا إثما عظيما.

ثالثا: أسباب القعود :

وللقعود عن العمل لدين الله - عز وجل - أسباب تؤدي إليه،
وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث:

1 - المعصية :

ذلك أن المرء إذا تلطخ بالمعصية بكل أشكالها وصورها:
الظاهرة منها والباطنة، الصغيرة منها والكبيرة، ولم يبادر
بالتوبة، والإنابة والرجوع إلى الله - عز وجل - فإن هذه المعصية
تؤدي إلى مرض القلب، بل موته، وحينئذ لا يكون للقلب سيطرة
على الجوارح، ويجد شياطين الإنس والجن، وكذلك الدنيا
ببريقها وزخارفها وزيناتها، الطريق مفتوحة للوسوسة والإغواء
والإغراء بكل ما يغضب الله ورسوله، ومنه القعود عن العمل
لدين الله بصورة أو بأخرى على النحو الذي قدّمنا.
وقد نبه الحق - تبارك وتعالى - إلى أن المعصية تقود إلى كل
ضرر في خلال ما حكاه عن بعض جرائم في إسرائيل، وأن
المعصية إنما كانت السبب في ارتكاب هذه الجرائم، حيث يقول
سبحانه:

40 - الحديث أخرجه أحمد في المسند 5/440 من حديث سلمان مرفوعا بهذا اللفظ، وأررده الهيثمي في
مجمع الزوائد: كتاب الجهاد . باب في، الرباط 5/290 من حديث سلمان بنحوه، وعقب عليه بقوله: "رواه
الطبراني وفيه من لم أعرفهم".

{ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَأْسِكَةَ يُبَاءُؤا وَبَعَصَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } (البقرة).

يقول ابن جرير - رحمه الله - في إجمال تفسير هذه الآية:
 "ومعنى الكلام : فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمري،
 وتجاوزوا حدِّي إلى ما نهيتهم عنه " (41) كما نبه إليه رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بقوله: "تعرض الفتن كالحصير عودا عودا،
 فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت
 فيه نكتة يضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، لا
 تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا
 كالكوز مَجْحِيًّا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من
 هواه " . (42)

ولابن قيم الجوزية تصويران لأثر المعصية على العبد، أحدهما
 واسع مطول يكفي أن نحيل القارئ عليه ، (43) والآخر موجز
 يقول فيه:

"والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح، ومدد يمد بها العبد
 أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم
 على نفسه، وهذا غاية الجهل: ما يبلغ الأعداء من جاهل، ما يبلغ
 الجاهل من نفسه " . (44)

2 - التوسع في المباحات :

وذلك أن الله عز وجل لم يمنع عباده من نصيبهم من المباحات
 ولكنه حماية لهم ورحمة بهم طلب منهم أن يكون أخذها بتوسط
 واعتدال فقال سبحانه:
 { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف).

41 - انظر: جامع البيان 1/252.

42 - الحديث سبق تخريجه في آفة "اتباع الهوى" 2/35.

43 - انظر: الداء والدواء، أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: فصل: المعاصي عدو لدود ص 138 - 149.

44 - انظر: المحرر الوجيز في 183/8-184.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (المائدة).

ويوم تغيب هذه الحقيقة عن بال المسلم ويتوسع في المباحات،
ينتهي به هذا التوسع إلى القعود، وترك العمل لدين الله، لا سيما
وطريق الله ليست مفروشة بالحرير والورود، وإنما محفوفة
بالمخاطر والمتاعب، والآلام، ومفروشة بالأشواك، ومروية
بالدموع، ومزدانة بالدماء والجماجم.

وقد تنبه سلف الأمة إلى هذا السبب، فحذروا من الوقوع فيه.
هذه عائشة - رضي الله عنها - تقول: "أول بلاء حدث في هذه
الأمة بعد نبيها: الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت
أبدانهم، فضعت قلوبهم، وجمحت شهواتهم" . (45)

وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: "إياكم والبطنة
في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم،
مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنه أصلح للجسد،
وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن
الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه" . (46)

وإذ يقول أبو سليمان الداراني: "من شبع دخل عليه ست آفات:
فقد حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على
الخلق - لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع - وثقل العبادة،
وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد،
والشباع يدورون حول المزابل" . (47)

3 - تمكن الدنيا من القلوب :

وذلك أن الدنيا إذا تمكنت من القلوب حملت صاحبها حملا على
الركون إليها، والاطمئنان والرضا بها، والغفلة عن الآخرة وترك
العمل لهذه الآخرة، وهذا هو القعود بعينه.
ولقد بين سبحانه وتعالى في كتابه هذا السبب حين قال:

45 - سبق تخريج هذا الأثر في آفة: "الفتور".

46 - سبق تخريج هذا الأثر في آفة: "الفتور".

47 - سبق تخريج هذا الأثر في آفة: "الفتور".

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِثْقَالَكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ } (التوبة: 38).

يقول ابن عطية - رحمه الله - : " هذه الآية هي بلا خلاف، نازلة عتابا على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفا بين راكب وراجل وتخلف عنه قبائل من الناس، ورجال من المؤمنين كثير، ومنافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل، وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع، وهلال بن أمية بذلك التأنيب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر، وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة حسب ما يأتي " . (48)

ويقول أيضا: " وقوله: { أرضيتم } تقرير، يقول: أرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة، وحظها الأسعد " . (49)

وكذلك نبه رب العزة إلى هذا في قوله سبحانه: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } (النساء: 77).

يقول ابن عطية: " ومعنى: { كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ } : أمسكوا عن القتال، وقوله: { يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ } يعني: أنهم كانوا يخافون الله في جهة الموت، لأنهم لا يخشون الموت إلا منه، فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون بأيديهم فخشوهم في جهة الموت كما كانوا يخشون الله " . (50)

48 - انظر: المحرر الوجيز 8/183، 184.

49 - انظر: المحرر الوجيز 8/183، 184.

50 - انظر: المحرر الوجيز 4/178.

ويقول أيضا: {إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ} : الأجل القريب: يعنون به موتهم على فرشهم، هكذا قاله المفسرون، وهذا يحسن إذا كانت الآية في اليهود أو المنافقين، وأما إذا كانت في طائفة من الصحابة، فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلام، وكثرة عددهم" . (51)

ونبه إليه أيضا في قوله سبحانه: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} (النحل).
يقول ابن عطية:

"ولما فعلوا فعل من استحب أَلزموا ذلك، وإن كانوا غير مصدقين بأخرة لكن الأمر في نفسه بين، فمن حيث أَعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره" . (52)
والتعذيب، أو النفي والتشريد في الأرض، وكل هذه الجرائم بسبب قعود القاعدين. وما لقيه أبناء الحركة الإسلامية في مصر من التعذيب في أوائل الخمسينات بسبب انسحاب نفر من العلماء من الصف، ومعهم ما لا يحصى من المتأثرين بهم، والواثقين فيهم - شاهد صدق على ما نقول، ويتحمل هذا النفر إثم ما نزل بهؤلاء إلا أن يعفو الله عنهم، ويتجاوز. وما يلقاه العمل الإسلامي اليوم بعموم من انسحاب نفر من الميدان، وقبوله أن يكون سوطا في يد الباطل يلهب به ظهور العاملين ويحرّض عليهم، ويخيف الناس منهم - لهو شاهد صدق كذلك على ما نقول.

ويقول العلامة الألوسي -رحمه الله- :
" {ذلك} إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى: {فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، أو

51 - انظر: المحرر الوجيز 4/179.

52 - انظر: المحرر الوجيز 10/238.

المذكور من الغضب والعذاب {أنهم}، أي بسبب أن الشارحين صدورهم بالكفر {اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي أثروها، وقدموها، ولتضمن الاستحباب معنى الإيثار قيل (عَلَى الْآخِرَةِ) فَعُدِّي بعلى، والمراد على ما في البحر - أي على ما جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان- أنهم فعلوا فعل المستحبين ذلك، وإلا فهم غير مصدقين بالآخرة" . (53)

وكذلك نبه إليه في قوله سبحانه : { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } (النجم).
يقول ابن عطية :

"وقوله: {وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} معناه: لا يصدق غيرها، فسعيه كله وعمله إنما هو لدنياه" . (54)
ويقول الألويسي:

"فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق، وهو القرآن العظيم المنطوي على بيان الاعتقادات الحقّة، المشتمل على علوم الأولين والآخرين، المذكر للآخرة، وما فيها من الأمور المرغوب فيها، والمرهوب عنها، والمراد بالإعراض عنه: ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به، وقيل: المراد بالذكر: الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالإعراض عنه: ترك الأخذ بما جاء به، وقيل: المراد به الإيمان، وقيل: هو على ظاهره، والإعراض عنه: كناية عن الغفلة عنه - عز وجل - {وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}: راضيا بها، قاصرا نظره عليها، جاهدا فيما يصلحها كالنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والمراد من الأمر المذكور: النهي عن المبالغة في الحرص على هداهم، كأنه قيل: لا تبالغ في الحرص على هدي من تولى عن ذكرنا وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته، وقصارى سعيه" . (55)

53 - انظر روح المعاني 238-10/14/239.

54 - انظر: المحرر الوجيز 15/271.

55 - انظر: روح المعاني 10/27/60.

4 - عدم استصحاب نية المضي إلى آخر الطريق وعدم العمل بمقتضى هذه النية :

وذلك أن سنته سبحانه في خلقه مضت بأن من نوى الخير وعمل بمقتضى هذه النية، فإنه سبحانه يوفقه ويؤيده حتى يصل إلى ما يريد، ومن نوى الشر وعمل بمقتضى هذه النية، فإنه سبحانه يتخلى عنه ويخذله فلا يوفق إلى الخير أبداً، ويضيع، إذ يقول سبحانه:

{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } (محمد)، { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى } (مريم: 76)، { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } (الصف: 5).

وانطلاقاً من هذه السنة لله في خلقه فإن من لا يستصحب نية المضي في الطريق إلى نهايتها، ويترك العمل بمقتضى هذه النية، تكون عاقبته الحرمان من توفيق الله وتأييده، ويكون القعود، وقد نبه رب العزة إلى هذا السبب وهو يتحدث عن المنافقين الذين قعدوا عن شهود تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم بأعذار واهية، وأن السبب الحقيقي إنما هو عدم استصحاب نية الجهاد، والخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأية ذلك أنهم لم يعملوا بمقتضى هذه النية، فكانت العاقبة أن كره الله خروجهم فخذلهم، وذلك في قوله سبحانه: { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } (التوبة).

يقول ابن عطية:

"وقوله تعالى: { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ } الآية حجة على المنافقين، أي ولو أرادوا الخروج بنياتهم لنظروا في ذلك، واستعدوا له قبل كونه " . (56)

ويقول الألويسي: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً}، أي أهبة من الزاد والراحلة، وسائر ما يحتاج إليه المسافر في السفر الذي يريده" . (57)

5 - العيش وسط القاعدين:

وذلك أن المرء كثيرا ما يتأثر بالوسط الذي يعيش فيه سواء أكان هذا الوسط قريبا - وهو البيت - أم بعيدا - وهو المجتمع - لا سيما إذا لم تكن لديه الحصانة الكافية التي يقاوم بها هذا الوسط القاعد، وكان هذا الوسط حريصا على إقعاده بطريق أو بأخرى من سخرية واستهزاء، إلى إغواء وإغراء، إلى تخويف وتثييط، إلى غير ذلك، وليست له من تهمة ولا جريرة إلا أنه عامل متحرك بدين الله عز وجل، وتكون العاقبة التخلف والقيود؟ ولذا جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" ، (58) " لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي" . (59)

6 - عدم اليقين بوعد الله ورسوله :

وذلك أن الله وعد المؤمنين العاملين الاستخلاف والتمكين، والأمن والأمان، قال تعالى :

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور).
{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (الصفات).

57 - انظر: روح المعاني 10/4/111.

58 - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب من يؤمر أن يجالس 4/259 رقم (4833)، والترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب منه 4/509 رقم (2378) وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب"، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ.

59 - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب من يؤمر أن يجالس 4/259 رقم (4832)، والترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء في صحبة المؤمن 4/519 رقم (2395) وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه"، والدارمي في السنن: كتاب الأطعمة: باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء 2/103، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا } (الفتح).

{ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } (الصف).

وأكد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال:

"ليبغين هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر" ، (60) "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا - وفي رواية: عضوضا- تكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة" ، (61) "بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والدين، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب" (62) إلى غير ذلك من الأحاديث.

60 - الحديث أخرجه أحمد في المسند 4/153، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المغازي والسير: باب علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه 6/17 وعقب عليه بقوله: "رجال أحمد رجال الصحيح"، والبيهقي في الكبرى: كتاب السير: باب إظهار دين النبي صلى الله عليه وسلم على الأديان 9/181، والحاكم في المستدرک 4/435، 431 وعقب عليه بقوله: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، كلهم من حديث تميم الداري".

61 - الحديث أخرجه أحمد في المسند 4/273 من حديث حذيفة مرفوعا، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب كيف بدأت الإمامة وما تصير إليه والخلافة والملك 5/191، 192 من حديث حذيفة مرفوعا، وعقب عليه بقوله: "رجاله ثقات" وعن الهيثمي نقل الدكتور يوسف القرضاوي في: ثقافة الداعية ص 67، 68.

62 - الحديث أخرجه أحمد في المسند 5/134 من حديث أبي بن كعب مرفوعا بلفظ: "بشر هذه الأمة بالسنة والتمكين في البلاد والنصر والرفعة في الدين، ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا، فليس له في الآخرة نصيب" وأورده المنذري في الترغيب والترهيب: كتاب إخلاص النية واتباع الكتاب والسنة: باب الترهب من الرياء أو ما يقوله من خاف شيئا منه 1/107 رقم (15) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، انتقاء الدكتور يوسف القرضاوي، من حديث أبي بن كعب مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: "رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد". وقد أقره الذهبي على ذلك في التلخيص 4/311 وعاد فعقب عليه في 4/318 بقوله: "فيه من الضعفاء محمد بن الأشرس السلمي وغيره". والسر في هذا الاختلاف: أن الإسناد الأول صحيح والآخر ضعيف، كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي.

ومن لم يوقن بهذا الوعد، فانه يقعد لا محالة، ويترك العمل لدين الله من الدعوة والجهاد. ولقد نبه رب العزة إلى هذا السبب، وهو يتحدث عن قعود المنافقين بقوله: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} (التوبة: 90).

يقول ابن جرير الطبري:
"يقول تعالى ذكره: وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف، وقعد عن المجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه الذين كذبوا الله ورسوله، وقالوا الكذب، واعتذروا بالباطل."
(63)

7 - مباغتة معوقات الطريق مع عدم الفطنة والاستعداد لهذه المعوقات:

ذلك أن هناك معوقات على الطريق من النفس الأمارة بالسوء إلى شياطين الجن، إلى شياطين الإنس، إلى الدنيا ببريقها وزيناتها، ممثلة في الزوج، والأولاد، والأموال، والمناصب، والوجاهة، والسلطان، ونحوها، إلى طول الطريق نفسها، وما لم يكن المرء فطنا مستعدا لهذه العقبات، وتباغتها، فإنه يصاب بالقعود لا محالة إلا أن يتغمده الله سبحانه وتعالى بفضل منه ورحمة.

وفي قصة الذي كان يعرف بحمامة المسجد، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله له بالغنى، ونصح النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "قليل تؤدي شكره خير من كثير يطغيك"، وألح حتى دعا النبي صلى الله عليه وسلم ربه له بالغنى، وجاءته الدنيا، وما كان فطنا مستعدا، فضاع، وفيه نزل قوله سبحانه:

{ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتُهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } (التوبة).

هذه القصة تشرح لنا هذا السبب بجلاء ووضوح. يقول الإمام الطبري معلقا على الآيات المذكورة: "يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم { مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ }، يقول: أعطى الله عهدا { لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ } يقول: لئن أعطانا الله من فضله، ورزقنا مالا، ووسع علينا من عنده، { لَنَصَّدَّقَنَّ } يقول: لنخرجن الصدقة من ذلك المال الذي رزقنا ربنا، { وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } يقول: ولنعملن فيها بعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به، وإنفاقه في سبيل الله، يقول الله تبارك وتعالى: فرزقهم الله، وآتاهم من فضله، فلما آتاهم الله من فضله بخلوا به بفضل الله الذي آتاهم، فلم يصدقوا منه ولم يصلوا منه قرابة، ولم ينفقوا منه في حق الله، { وَتَوَلَّوْا } يقول: وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدوه الله { وَهُمْ مُعْرِضُونَ } عنه، فأعقبهم الله نفاقا في قلوبهم ببخلهم بحق الله الذي فرضه عليهم، فيما آتاهم من فضله، لإخلافهم الوعد الذي وعدوا الله، ونقضهم عهده في قلوبهم { إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتُهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ } من الصدقة والنفقة في سبيله، { وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } في قيلهم، وحرمتهم التوبة منه؛ لأنه جل ثناؤه اشترط في نفاقهم أنه أعقبهم إياه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم، وخروجهم من الدنيا" . (64)

8 - التأخير إلى موقع الجندية بعد القيادة :

وذلك أن الواقع قد شهد بأن بعض الناس حين يكون في موقع القيادة، ولسبب أو لآخر يرد إلى موقع الجندية، تكبر عليه نفسه،

64 - انظر: جامع البيان 10/6/130.

لا سيما إذا نظر إلى القيادة على أنها تشريف لا تكليف، غنائم لا تبعات، وحينئذ لا يكون منه إلا القعود، والتخلي عن أداء الواجب، وقد شاهدت بعيني رأسي شابا نشطا عاملا لدين الله، وبلغ به نشاطه أن كانت له حلقة علمية، يحضرها كثيرون، ولسبب أو لآخر طلب منه أن يكون تلميذا لا أستاذا، جنديا لا قائدا فورمت أنفه، وشرق بريقه، وقعد عن العمل لدين الله، وترك الواجبات المنوطة به، وحين فوَّح في ذلك أجاب بأن الجندية خنق وقتل للمرء، والقيادة حرية وانطلاق، فكيف تضيع مني القيادة، وأرضى بالجندية، وبينهما من الفرق ما بينهما، فكان الرد على الفور: "رحم الله أبا سليمان خالد بن الوليد، فقد جاءه كتاب العزل من أمير المؤمنين عمر لمصلحة رآها عمر، وكان هو القائد المظفر، فنقذ ما في الكتاب وكله فرح وسرور، وأخذ مكانه جنديا بين الجنود، وقال مقولته المشهورة: والله لو ولي علي عمر عبدا أسود اللون لسمعت وأطعت ما دام يقودني بكتاب الله".

9 - الاغترار بوعود الباطل :

وذلك أن الباطل يحاول بطريق أو بأخرى تكثير سواد القاعدين من المسلمين الدعاة العاملين لدين الله، وله في ذلك أساليب كثيرة، ومنها الوعود البراقة بمال، أو بمنصب، أو بوجاهة مثلما حاول عتبة بن ربيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الناس من تنطلي عليه هذه الوعود، وينساق وراءها تاركا الالتزام بمنهج الله، والعمل لدينه من أجل الظفر بهذه الوعود، وقد شاهدنا في تاريخ الحركة الإسلامية في العصر الحاضر نفرا زين لهم أهل الباطل القعود حين منحوهم بعض المناصب العليا فقعدها، ثم ألقى بهم هؤلاء في العراء عند أول تغيير لمن يشغلون هذه المناصب، وما أغنت عنهم هذه الوعود من الله شيئا، بل على العكس لقد أغضبوا ربهم حين ركنوا إلى الظالمين وأزروهم، أو أعانوهم على ظلمهم، وبغيهم في الأرض بغير الحق.

وفي الأدب الرمزي: قصة الذي غضب لله أول مرة: لأن شجرة تعبد من دون الله، وعبر عن غضبه هذا بمحاولة قطع الشجرة، ومناه الشيطان الذي تمثل له في صورة بشر مدافع عن الشجرة ببعض المال من كل صباح، فقعد طمعا في تحقيق هذا الوعد، وما هي إلا أيام حتى ذاب هذا الوعد، وصار سرايا وحاول قطع الشجرة هذه المرة، ولم ينجح؛ لأن غضبه لم يكن لله، وإنما كان للوعد الذي أخلف ولم يتحقق، وهكذا يؤدي الاغترار بوعود الباطل إلى القعود والتخلي عن الواجب.

10 - عدم وجود منهاج يملأ الحياة ويقضى على الفراغ :

وذلك أن المسلم إذا لم يشغل نفسه بمنهاج يملأ حياته ويقضى على الفراغ، من تدبر وتفكر إلى عبادات مخصوصة، كصلاة ونحوها، إلى رعاية للآداب الاجتماعية، إلى قيام بحق الأهل والولد، إلى كسب للعيش، إلى اشتغال بدعوة وهداية الآخرين، إلى الوقوف في وجه الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، إلى غير ذلك مما يعد جزءا من رسالة المسلم في الأرض - إذا لم يشغل المسلم نفسه بمنهاج كهذا، فإن نفسه الأمانة بالسوء تملئ عليه، بإغواء من شياطين الجن والإنس، وبتأثير من زخرف الحياة الدنيا، منهاجا باطلا غير ما يريد الله ورسوله، وياخذ في تنفيذ هذا البرنامج، وذلك هو عين القعود.

11 - عدم ملاءمة المنهاج للطاقات والإمكانات :

وذلك أن المسلم لا يبقى حيا نشطا متحركا إلا في ظل منهاج ملائم لطاقته وإمكاناته، ويوم أن يخلو منهاج من هذه الملاءمة، كأن يكون فوق المستوى، أو دون المستوى، فإن العاقبة ستكون القعود والترك إلا من رحم الله. ولعل هذا هو سر مخاطبته ب صلى الله عليه وسلم لكل واحد من أصحابه بما يلائمه ويتناسب مع ميوله وإمكاناته وطاقاته، بل

وعلله، وأمراضه، فقد كان يخاطب الجميع خطابا عاما، ويأتي إلى الخاصة ويخاطبهم خطابا فوق خطاب العامة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل، قال: "يا معاذ بن جبل"، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: "يا معاذ"، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثا). قال: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار". قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: "إذا يتكلموا" وأخبر بها معاذ عند موته تأثما . (65)

12 - عدم إعطاء العامل حقه من الاحترام والتوقير :

وذلك أن المرء غالبا ما يظل مستمرا في أداء واجبه، والقيام بما تفرضه عليه رسالته ما لم يهن أو يحتقر، فإن حدث، وحرّم هذا المرء حقه من الاحترام والتوقير في حدود الضوابط الشرعية، فإنه يرد على ذلك غالبا بالقعود، والتخلي عن أداء الواجب. ولعل هذا هو سر دعوته صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يراعوا الآداب الاجتماعية فيما بينهم إذ يقول:

"ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وفي عن المنكر" . (66)

وفي رواية: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا، أو حق كبيرنا" . (67)

⁶⁵ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب العلم: باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا 1/44، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا 1/61 رقم (32)، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخاري.

⁶⁶ - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في رحمة الصبيان 4/284 رقم (1921)، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب"، وأحمد في المسند 1/257، كلاهما من حديث عكرمة عن ابن عباس مرفوعا، واللفظ للترمذي.

⁶⁷ - هذه الرواية أخرجه الترمذي أيضا في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في رحمة الصبيان 4/284 رقم (1920) من حديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساق الحديث بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: "وحدث محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب حديث حسن صحيح"، وأخرجها أحمد في المسند 2/207 من حديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يعرف حق كبيرنا، ويرحم صغيرنا"، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا": ليس من سنتنا، ليس من أدبنا، هذا رأي نفر من العلماء، وقال علي بن المديني: قال يحيى بن سعيد: كان سفيان الثوري ينكر هذا التفسير - أي الذي قدمنا عن نفر من العلماء - ويقول: ليس منا: ليس من ملتنا، هكذا ذكر التفسيرين الإمام الترمذي

13 - تحميل النفس من الواجبات فوق ما تطيق :

وذلك أن أي عمل من الأعمال تكون له في البداية حلاوة، وقد يلقي من العامل إقبالا، واستفراغا لكل ما في وسعه، وما في طاقته، وربما رأى ذلك من يحيطون به، فيلقون ببعض ما في أيديهم من واجبات وتكاليف عليه، ولا يلتفت هو إلى ذلك، ويقبل منهم، ويمضي، وبعد فترة من الزمان يجد نفسه قد أنهكه العمل وأضناه، فيفتر، وإذا لم يبادر بالعلاج والتخلص من هذه الحال يكون القعود، والانقطاع عن أداء الواجب، وفي آفة " الغلو في الدين أو التنطع " من الجزء الثالث من هذا الكتاب صورة دقيقة لكيفية إيصال هذه الآفة صاحبها إلى القعود والترك .

14 - عدم تجاوز الآخرين عن أي هفوة من الهفوات :

وذلك أن المرء بطبيعته مجبول على الخطأ باستثناء الأنبياء والمرسلين لما أكرمهم الله عز وجل به من العصمة، والمحاسبة سبيل من سبل التخلص من هذا الخطأ .
ومن أساليب المحاسبة التجاوز أحيانا عن بعض الهفوات والزلات اليسيرة كيلا يسيطر اليأس والقنوط على النفس، وقد لا ينتبه البعض إلى هذا الأسلوب، ويحملة إتقان العمل وإجادته على المؤاخذة في كل الأمور حتى لو كانت يسيرة بسيطة، وربما لا يتحمل العامل ذلك وتكون العاقبة القعود، والتخلي عن أداء الواجب.

ولعل هذا هو سر دعوة الإسلام إلى العفو مع القدرة على الانتقام والبطش . إذ يقول سبحانه :

في السنن 4/284، والتفسير الجامع بين التفسيرين المذكورين قياسا على ما ذكره ابن حجر في فتح الباري 9/104، 105 في معنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الرهط الذين عزموا على التبتل، وترك الزواج: (فمن رغب عن سنتي فليس مني) هو أن نقول: إن كان عدم قيامه بحق الكبار، ورحمة الصغير ناشئا من تأويل مع ذهول وعدم انتباه، فالمراد المعنى الأول، وإن كان ناشئا من أعراض وتنطع عن الهدى النبوي بحجة أنه ليس بشيء، فالمراد المعنى الثاني، والله أعلم.

{وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران)

{خُذْ لِمَغْفِرٍ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف).
{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا
تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} (النور: 22).

15 - الظن أن القعود سلامة وعافية :

وذلك أن الشيطان قد يسول لبعض الناس القعود وترك العمل لدين الله بحجة حماية نفسه، وغيره من المحنة، لا سيما في عصرنا هذا الذي تَنَمَّر فيه الباطل، وتفرغ للعاملين لدين الله بحيث لم يعد لديه من شغل شاغل إلا هُم، ناسيا أو متناسيا أن السلامة والعافية منة ومحض فضل من الله سبحانه وتعالى، بيد أن سنته سبحانه وتعالى مضت أن يمنحهما للمتقين العاملين، كما قال سبحانه:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} (النور: 55).
{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} (الأنعام).

{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد).

وربما يدخل الشيطان من مدخل آخر: إذ يقول للعامل: إنك تخطئ وترتكب كثيرا من المعاصي والآثام، وهذا يؤخر عون الله، وتأييده عن العاملين، بل ربما يكون سببا في كارثة أو محنة تنزل بالجميع، وخير لك أن تتبعد من طريق هؤلاء البررة الأتقياء من عباد الله لتحل عليهم السلامة، وتصيبهم العافية، ناسيا أو متناسيا أنهم مثله يصيبون ويخطئون، غير أنه هؤلاء لا يصرون

على الخطأ بل يبادرون بالتوبة، والإنابة، والرجوع إلى الله عز وجل.

16 - عدم استجابة الآخرين :

وذلك أن نفرا من الدعاة يتوهم أنه لا ينجح في مهمته إلا إذا استجاب الآخرون، وقبلوا منه ما يقول، فإن لم يستجيبوا لما يقول كان منه القعود، والتخلي عن المضي في الطريق إلى نهايتها ناسيا أو متناسيا أن قلوب العباد جميعا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء، وأن الله قال لنبيه:

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} (القصص: 56).

{إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} (الشورى: 48).

17 - الغفلة عن عاقبة القعود:

وأخيرا قد تكون الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على القعود - فردية كانت أو جماعية، دنيوية كانت أو أخروية - هي السبب في القعود، وقد رأينا في العصر الحاضر نفرا ممن قعدوا في حال لا يحسدون عليها الآن، وهم يقولون: والله لو درينا أن القعود سيصل بنا إلى هذا المستوى، وإلى هذا الحال ما قعدنا.

رابعا: آثار القعود:

هذا وللقعود آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي، ودونك طرفا من هذه الآثار والعواقب:

أ - على العاملين:

فمن آثار القعود على العاملين :

1 - تفرد الشياطين بهم ثم افتراسهم :

إذ من قعدوا عن الالتزام بالإسلام بالمرّة صاروا موالين للشياطين من الجن والإنس، وأما الذين انفصلوا عن العاملين لدين الله، وعاشوا وحدهم ملتزمين في أنفسهم وأهليهم بمنهج الله، فهؤلاء سمحوا للشياطين أن يتفردوا بهم، ثم يفترسوهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (... فمن أحبّ منكم بحبوة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد" . (68)

2 - مضاعفة الذنوب والآثام الأمر الذي ينتهي أن

تكون الجحيم هي المأوى:

وذلك أن القاعدين يفتحون بابا واسعا أمام كثيرين من الضعفاء والعامّة، ممن يقتدون بهم، فيقعدون قعودهم، وبهذا يحملون وزرين: ووزر قعودهم، ووزر إقعاد غيرهم، إذ يقول سبحانه: {وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} (العنكبوت: 13). {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ} (النحل). وتتضاعف الذنوب والآثام بدوام القعود حتى تكون الجحيم هي المأوى والعياذ بالله.

3 - الذل والهوان :

وذلك أنهم حين قعدوا عن نصرة دين الله لم يمنعهم هذا القعود من أن ينزل بهم قدر الله، وقد قدر الله حياة الذل والهوان في الدنيا والآخرة على كل من تولى وأعرض عن ذكره سبحانه وتعالى، فقال:

68 - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللفتن: باب ما جاء في لزوم الجماعة 4/404 رقم (2165) وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وأحمد في المسند 1/26 من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه .

{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } (طه).

{ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا } (الجن).
وقد عشنا وشاهدنا في العصر الحاضر من قعد عن نصره دين الله بعد أن كان شعلة نشاط، وما كان له من مبرر إلا الإبقاء على النفس، والأهل، والمال، والولد، ومضى قدر الله، ولم يظفر بما أراد، وعاد يندب حظه، ويقول: { يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا } (النساء).

ب - على العمل الإسلامي :

ومن آثار القعود على العمل الإسلامي:

1 - إضعاف هذا العمل، وتعريضه للاغتيال أو على الأقل الإجهاض بحيث لا يؤدي ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة وزمن طويل . ذلك أن هذا الصنف من القاعدين لم يقتصر قعوده على نفسه، بل تعداه إلى قعود الآخرين اقتداءً، وتأسياً، بل أبعد من ذلك أغلق الباب في وجه من يريدون الالتزام بدين الله والعمل له لأول مرة، إثارة للسلامة والعافية بزعمهم، ولا شك أن هذا إضعاف للعاملين، وللعمل الإسلامي، ومعروف أن المبطلين لا يتمكنون من العاملين والعمل الإسلامي إلا في مثل هذا الجو من الضعف والتفرق .

2 - تعريض العاملين لدين الله لشدائد وامتحانات لا تطاق من انتهاك للأعراض، وسلب للأهوال، وسفك للدماء، أو على الأقل التضييق والتعذيب، أو النفي والتشريد في الأرض، وكل هذه الجرائم بسبب قعود القاعدين .

وما لقيه أبناء الحركة الإسلامية في مصر من التعذيب في أوائل الخمسينات بسبب انسحاب نفر من العلماء من الصف، ومعهم ما لا يحصى من المتأثرين بهم، والواثقين فيهم - شاهد صدق على ما نقول، ويتحمل هذا النفر إثم ما نزل بهؤلاء إلا أن يعفو

الله عنهم، ويتجاوز . وما يلقاه العمل الإسلامي اليوم بعموم من انسحاب نفر من الميدان، وقبوله أن يكون سوطا في يد الباطل يلهب به ظهور العاملين و يحترض عليهم، ويخيف الناس منهم - لهو شاهد صدق كذلك على ما نقول.

خامسا: علاج القعود:

وفي ضوء ما قدمنا من أسباب القعود وبواعثه يمكن رسم طريق الخلاص، بل طريق الوقاية من هذا القعود، ودونك معالم هذه الطريق:

1 - استشعار نعم الله التي أنعم بها علينا في أنفسنا، وفي الكون المحيط بنا، ظاهرة كانت هذه النعم أو باطنة، حيث يقول سبحانه:

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ }
(إبراهيم).

{ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } (لقمان: 20).

وأن هذه النعم ينبغي أن تقابل بالشكر كي تدوم، وشكر النعمة إنما يكون بتوظيفها فيما خلقت له، لا باستخدامها فيما يغضب الله ويسخطه، فإن مثل هذا الاستشعار قد يحرك النفر من داخلها ويحملها على النهوض من جديد.

2 - استشعار القاعد مسؤوليته أمام الله يوم القيامة عما يلقاه المسلمون المضطهدون، الملاحقون في كل مكان: في البوسنة والهرسك، في الجمهوريات الإسلامية في آسيا، في كشمير المسلمة، في بورما، في أريتريا، في الفلبين، في دول البلقان، في إفريقيا، في بلاد العرب، في فلسطين، فيما لا نعلمه بسبب التعقيم الإعلامي المقصود، ويعلمه الله عز وجل. وماذا سيكون جوابه لربه غدا يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، فإن هذا الاستشعار من شأنه أن يخيف صاحب الفطرة السليمة، والعقل

الراشد فيجاهد نفسه على التحرر من القعود، ويعمل على النهوض من جديد.

3 - التوسط في تعاطى المباحات من غير إفراط أو تفريط، مع اليقين أن في ذلك عافية لنا في أبداننا، وعقولنا، وأرواحنا، وأن ما نحرم أنفسنا منه اليوم سنلقاه غدا في أكمل وأبهى صورة: { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } الأعراف :

4 - إخراج حب الدنيا - بوسيلة أو بأخرى - من القلوب فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهذا لا يمنع أن تكون هذه الدنيا في أيدينا نتبوا منها حيث نشاء، شريطة أن تكون من حلال، وأن نؤدي حق الله فيها، بل أن تتنازل عنها جميعا لله إن اقتضت الحال ذلك، كما أثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فإن مثل هذا الصنيع مع الدنيا من شأنه أن يحمل القاعد على النهوض والاستمرار إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا.

5 - دوام النظر في كتاب الله، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم للوقوف على أخبار القاعدين، المخلفين، وما صاروا إليه من ذل وهوان في الدنيا والآخرة، فلعل مثل هذا النظر يخوف القاعد إن كان له قلب، فيبادر بترك القعود، ويحمل نفسه على النهوض حماية لها من أن تصير إلى ما صار إليه هؤلاء القاعدون من قبل، وأن يذيقها الله من الذل والهوان في الدنيا والآخرة مثلما صنع بهؤلاء، وسورة النساء، والتوبة، والأحزاب، والفتح من أوسع سور القرآن حديثا عن هذا الصنف من الناس.

6 - تأمل واقع هؤلاء القاعدين اليوم، وكيف صاروا أسهما في كنانة أعداء الله، ورسوله والمؤمنين، يصوبونه إلى صدور العاملين، فتقوى بهم شوكة هؤلاء الأعداء، حتى إذا استنفذوا بنيتهم منهم، خلعوهم من أقدامهم، وألقوا بهم في مزبلة التاريخ، فخسروا الحياتين جميعا الدنيا والآخرة، وخسارة الآخرة أشد:

{قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (الزمر)

7 - مجاهدة النفس من أجل أن تستصحب نية الجهاد والعمل
لدين الله عز وجل، ثم تنفيذ ما تقتضيه هذه النية، ولكن مع
الصدق والإخلاص، واتباع السنة، فلعل الله عز وجل بهذه النية
يمن على هذا الصنف القاعد من الناس وينتشله من وهدة
القيود، إلى قيمة النهوض والعمل، إذ يقول سبحانه:

{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} (مريم: 76).

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} (محمد).

8 - الانقطاع عن صحبة القاعدين إلا بالقدر الذي به يكون العمل
على انتشار هؤلاء من قعودهم هذا، مع الارتقاء وبسرعة في
وسط العاملين، فإن ذلك مما يقوي العزيمة، ويعلى الهمة،
ويثبت النفس، ويحملها على الاقتداء والتأسي، فإن لم يكن
فالتشبه والمحاكاة.

9 - دوام النظر في وعد الله ورسوله للمؤمنين بالنصر والغلبة
والتمكن في الأرض، وكيف حقق ذلك للمؤمنين أول مرة حين
نهضوا، وما كانوا يوما من القاعدين، و سيظل هذا الوعد قائما
إلى يوم الدين شريطة أن نكون مؤمنين حقا نرفض القعود،
والذل، والهوان، ونمضي في الطريق عاملين لا نلوي على شيء
إلا على مرضاة الله، ورسوله، فإن مثل هذا النظر مما يحرك
النفوس الأبية الكريمة ويحملها على النهوض، وترك القعود.

10 - الانتباه إلى معوقات الطريق من الأزواج، والأولاد،
والأموال، والسلطان، والجاه، ونحوها كي نأخذ لها الأبهة

والإستعداد، ونعلم أن هؤلاء لن يغنوا عنا من الله عز وجل شيئا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدَّةٌ لَكُمْ

فَاخَذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (التغابن).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (المنافقون).

11- المبادرة بعمل منهاج يستوعب الحياة بأشكالها وصورها، ويكون ملائماً لطاقات وإمكانات الناس، ولا سيما هذا الصنف من القاعدين، على أن يكون كتاب الله وسنة رسوله هما الأساس والأصل في وضع مثل هذا المنهاج. فإن مثل هذا المنهاج من شأنه أن يقضي على كل لحظات الفراغ التي يمكن أن تستغل من قبل شياطين الجن وشياطين الإنس، ويفتح الباب أمام القاعدين للنهوض من جديد.

12- مجاهدة النفس على احترام وتوقير الآخرين لا سيما أهل الفضل والدين، بل مجاهدتها على ألا تحمل من التكاليف والواجبات إلا ما تطيق، نظراً لطول الطريق ومشقة التكاليف، فإن هذه المجاهدة من شأنها أن تحرك القاعدين فينهضون من جديد.

13- استقبال تغيير الموقع - ولا سيما من الأعلى للأدنى، من القيادة إلى الجندية- بفرح وسرور، وراحة بال، وهدوء خاطر، فإنه كلما علت منزلة الإنسان في المسؤولية كان الحساب أشد والمؤاخذة أعظم على حد قوله تعالى:

{يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَأْتِ مِنْكِ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} (الأحزاب).

15- مواجهة وسوسة شياطين الجن والإنس، وإغراء الحياة الدنيا بأن في القعود سلامة وراحة وعافية بأن هذا هو الهلاك بعينه، كما قال سبحانه عن هؤلاء الذين تخلفوا عن تبوك فرارا من التكاليف، وإيثار للراحة، والسلامة والعافية:

{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السَّبِيلُ وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (التوبة).

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكَوْا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (التوبة).

ولعل مما يوضح أن القعود هو الهلاك بعينه، هذه الآثار عن أبي
عمران - رضي الله عنه - قال:

"كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة ابن عامر، وعلى أهل
الشام رجل يريد فضالة بن عبيد رضي الله عنهما، فخرج من
المدينة صف عظيم من الروم، فصفنا لهم، فحمل رجل من
المسلمين على الروم، حتى دخل فيهم، ثم خرج علينا فصاح
الناس إليه، فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقام أبو
أيوب الأنصاري رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال: يا أيها الناس، إنكم تأولون هذه الآية على هذا
التأويل، إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله
دينه، وكثر ناصره، فقلنا - فيما بيننا بعضنا لبعض سرا من
رسول الله صلى الله عليه وسلم -: إن أموالنا قد ضاعت فلو
أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله عز وجل يرد علينا
ما هممنا به، فقال:

{ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } (البقرة: 195).

فكانت التهلكة في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا
نصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب رضي الله عنه غازيا
في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل " (69)
ومن وجه آخر، عن أبي عمران رضي الله عنه قال: "غزونا
المدينة - يعني القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن
خالد بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل
رجل على العدو فقال الناس: مه، مه، (70) لا إله إلا الله،
يلقي بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب. الأنصاري رضي الله
عنه: إنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه،

⁶⁹ - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة البقرة 5/196 رقم 2972
وعقب الترمذي على حديثه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح غريب" من حديث أسلم أبي عمران التجيبي
بنحو هذا اللفظ، والنسائي في السنن الكبرى. كتاب التفسير: باب قوله تعالى: { ولا تلقوا بأيديكم إلى
التهلكة } 6/299 رقم 11029 من حديث أسلم أبي عمران. وأورده الشيخ محمد يوسف في حياة الصحابة
1/470 نقلا عن البيهقي.

⁷⁰ - مه: اسم فعل أمر مبنى على السكون بمعنى: اكفف، انظر: المعجم الوسيط 2/889.

وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا، ونصلحها، وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية" . (71)

ومن وجه ثالث، عن أبي عمران رضي الله عنه قال: "حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال ناس: ألقى يده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدنا معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام، وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تخفياً، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصره، حتى فشا الإسلام، وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين، والأموال، والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا، وأولادنا فنقيم فيهم، فنزل فينا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل، والمال، وترك الجهاد" . (72)

16- لا ينبغي أن يصرفنا عدم استجابة الآخرين إلى ما ندعوه عن الدعوة إلى الله، بل لابد من الاستمرار مع تخير أحسن الأساليب، ونكل أمر القلوب بعد ذلك إلى الله وهو سبحانه حين يرى منا الصدق والإخلاص، واستفراغ كل الأساليب والوسائل، لن يضيع علينا ثمرة جهدنا وعطائنا، وحسبنا الأجر والمثوبة: {وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} (القصص: 80).

71 - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في الجرأة والجبن 3/27 رقم 2512 من حديث أسلم أبي عمران التجيبى بهذا اللفظ، وأورده الشيخ محمد يوسف في: حياة الصحابة 1/470، 471 نقلا عن البيهقي.

72 - الحديث أورده الشيخ محمد يوسف في: حياة الصحابة 1/471 نقلا عن ابن كثير في: تفسير القرآن العظيم.

الآفة الرابعة والعشرون الشح

والآفة الرابعة والعشرون التي أصابت وتصيب نفرا من العاملين، وكانت سببا في كثير مما نعاني منه نحن المسلمين اليوم إنما هي: "الشح". وحتى يتطهر منها من ابتلي بها، ويتقيها من عافاه الله - عز وجل - منها، فإننا سنقف على أبعادها، ومعالمتها من خلال هذه الفقرات.

أولا: تعريف الشح

لغة

يطلق الشُّحُّ لغةً على معان منها :

1 - حرص النفس على ما تملك، وبخلها به، أو هو ضد الإيثار، إذ المؤثر غيره على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيع حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شحٌّ، وبخل بإخراجه، نقول: شح فلان بالشيء: بخل، وشحَّ على الشيء: حرص، فهو شحيع وشحاح.

2 - القلة والعسر، نقول: شحَّ الماء ونحوه، شحاً: قلٌّ، وعسُر، وشحَّ الزناد: لم يور أي لم يشتعل.

3 - التسابق إلى الشيء والتنافس عليه، نقول: تحاشوا في الأمر وعلى الأمر: تسابقوا، وتنافسوا، وتشاح الخصمان: بدا حرصهما على الغلبة.

4 - المخاصمة أو المماحكة والمجادلة، نقول: شاح فلانا: خاصمه، وماحكه، ويقول العلماء: لا مشاحة في الاصطلاح: لا مجادلة فيما تعارفوا عليه . (73)

73 - انظر: المعجم الوسيط 1/474 بتصرف.

وعندي أنه لا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، إذ الشُّحُّ: حرص أو بخل يتلخص في المنع، أو العطاء بقلّة، وربما يحمل على التنافس والمخاصمة أو المجادلة.

اصطلاحاً:

له معنيان:

أحدهما عرفي: وهو البخل بالمال، حتى صار معروفاً بين الناس أنه إذا أطلقت كلمة شح انصرفت مباشرة إلى إمساك المال وعدم بذله.

والآخر شرعي: وهو البخل بكل برٍّ ومعروف مالا أو غيره، في يده أو في يد غيره، ولهذا المعنى الشرعي شواهد وأدلة منها:

1 - قوله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)،⁽⁷⁴⁾ وفي رواية: (إياكم والشُّحَّ فإنما هلك من كان قبلكم بالشُّحِّ: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا).⁽⁷⁵⁾

قوله صلى الله عليه وسلم: (البخيل مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يصل علي).⁽⁷⁶⁾

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن لفلان في حائطي عذقا،⁽⁷⁷⁾ وإنه قد أذاني، وشق علي مكان عذقه،

⁷⁴ - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البير و الصلة و الآداب: باب تحريم الظلم 4/1996 رقم 2578 (56) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً بهذا اللفظ، وأحمد في المسند 2/431 من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: (إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات عند الله يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش، وإياكم والشُّحَّ، فإنه دعا من قبلكم فاستحلوا محارمهم، وسفكوا دماءهم، وقطعوا أرحامهم) [3/323] من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً بلفظ مسلم.

⁷⁵ - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب الشُّحِّ 2/324 رقم 1698، وأحمد في المسند 2/160، 191، 195 كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص DDG 9FG 16J مرفوعاً واللفظ لأبي داود.

⁷⁶ - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللدعات: باب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رغم أنف رجل) 5/515 رقم 3546، وأحمد في المسند 1/201 كلاهما من حديث الحسن بن علي بن أبي طالب، وعقب عليه الترمذي بقوله: هذا حديث حسن صحيح غريب.

⁷⁷ - العذق: العرجون بما فيه من الشماريخ، ويجمع على عذاق، أما العذق بالفتح فهو: النخلة، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: (كم من عذق مذلل في الجنة لأبي الدحداح)، [انظر النهاية في غريب الحديث والأثر 3/77].

فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم: (بعني عذقك الذي في حائط فلان) قال: لا، قال: (فهيه لي) قال: لا، قال: (فبعنيه بعذق في الجنة) قال: لا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام).⁽⁷⁸⁾ إلى غير ذلك من النصوص الشرعية الدالة على أن الشح في لسان الشرع: إنما هو البخل بكل بر، ومعروف، مالا أو غيره، في يده أو في يد غيره.

ثانيا: مظاهر الشُّح وقيمه في ميزان الإسلام.

- وللشح - بمعناه الشرعي الذي ذكرناه - مظاهر تدل عليه، وأمارات يعرف بها، وأهم هذه المظاهر، وتلك الأمارات:
- 1 - البخل بالرئاسة بأن يكون المرء صاحب رئاسة تعود على الدين والأمة بالخير، ثم يحبس هذه الرئاسة، فلا يصرفها في خدمة الدين ومصالح الأمة.
 - 2 - البخل بالوجاهة، بأن يكون المرء من بيت معروف بشرف ووجاهة يفيدان حماية الحق ومؤازرته، ثم يحبس هذا الشرف وهذه الوجاهة عن أن يقفا مع هذا الحق ويؤازرانه.
 - 3 - البخل براحته ورفاهيته وإجمام نفسه عن أن تكون هذه جميعا في مصلحة الغير مع قدرته على ذلك.
 - 4 - البخل بالعلم بمعنى حبسه عن الناس وإن سألوه، أو حبس الجواب الكافي الشافي عند السؤال، والاقتصار في الجواب، ولا سيما عند الفتيا، بكتابة "نعم" أو "لا".
 - 5 - البخل بنفع البدن في أي صورة من الصور، كالعدل بين الناس ومواساة ذوي الحاجة، وإماطة الأذى عن الطريق، وإرشاد الضال أو التائه إلى الطريق والإفساح في المجلس ونحوه.

⁷⁸ - الحديث أخرجه أحمد في المسند 3/328 من حديث جابر بن عبد الله DDG 9FG 16J مرفوعا بهذا اللفظ.

- 6 - البخل بحسن الخلق من عدم مقابلة السيئة بمثلها، ومن العقود، وكف الأذى.
- 7 - البخل بالنفس، فلا يضحى بها ولا يبذلها فداءً لدين الله، مع أنه يرى حرمة الدين تنتهك متمثلة في نشر الشرك والإلحاد، وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وسلب الأموال، والعدوان على المقدسات ونحوها.
- 8 - البخل بالمال، بمعنى حبسه عن صرفه في أوجه الخير والاستحقاق.
- 9 - البخل بما يقدمه الآخرون من نفس ومال خدمة لدين الله عز وجل، على نحو ما يصنعه راسميون اليوم من ملاحقة وإيذاء كل من يصنع ذلك، متهمين إياه بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان بحجة تجفيف منابع.
- 10 - لمز الآخرين فيما يقدمون على نحو ما قال المنافقون في نفر من المؤمنين لم يجدوا ما يتصدقون به سوى جهدهم، وحكاه الحق تبارك وتعالى في كتابه فقال: {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم} [التوبة: 79]. وهلم جرا.
- والشَّحُّ بكل صورته، ومظاهره مذموم:
- فقد بين الله في كتابه أن من طهرت نفسه من الشُّحِّ فهو من المفلحين حقا، فقال: {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: 9. التغابن: 16].
- وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: "إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئا"، وإذا الرجل: عبد الرحمن بن عوف . (79)

79 - الحديث أخرجه ابن جرير في جامع البيان 228/12/28 من حديث سعيد بن جبير عن أبي الهياج بهذا اللفظ، وأورده السيوطي في "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" 8/108، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر، وابن عساكر.

وعن ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قول الله عز وجل: { وَمَنْ يوق شَحَّ نَفْسِهِ } قال: مَنْ وَقَى شَحَّ نَفْسِهِ فلم يأخذ من الحرام شيئاً، ولم يقربه، ولم يدعُ الشَّحَّ أن يحبس من الحلال شيئاً فهو من المفلحين . (80)

وعن ابن عباس قال: قوله: { وَمَنْ يوق شَحَّ نَفْسِهِ } يقول: هوى نفسه، حيث يتبع هواه، ولم يقبل الإيمان . (81)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: { وَمَنْ يوق شَحَّ نَفْسِهِ } : أن يعمد إلى مال غيره فيأكله . (82)

ويقول ابن جرير رحمه الله: وقوله { فأولئك هم المفلحون } يقول: فهؤلاء الذين وقوا شح أنفسهم المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم . (83)

كما بين سبحانه أن الشَّحَّ على المؤمنين بالخير من البر والمعروف من صفات المنافقين، وكفى بهذا ذماً للشَّحَّ، فقال: { قد يعلم الله المعوقين منكم، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً، أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم، كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، و كان ذلك على الله يسيراً } [الأحزاب: 18-19].

يقول أبو الحسن المارودي: قوله تعالى: { أشحة عليكم } فيه أربعة تأويلات:

أحدهما: أشحة بالخير، قاله مجاهد.

الثاني: بالقتال معكم، قال ابن كامل.

الثالث: بالغنائم أصابوها، قاله السدِّي.

80 - الحديث أخرجه ابن جرير في جامع البيان 28/12/30 من طريق يونس قال: أخبرنا ابن وهب، عن ابن زيد، وساقه بهذا اللفظ.

81 - الحديث أخرجه ابن جرير في جامع البيان 28/12/82 من حديث أبي معاوية، عن علي، عن ابن عباس، وساق الحديث بهذا اللفظ.

82 - الحديث أخرجه ابن جرير في جامع البيان 28/12/82 من حديث سفيان عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود وساق الحديث بهذا اللفظ.

83 - انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري 12/82//28 .

الرابع: أشحة بالنفقة في سبيل الله، قاله قتادة . (84)
ويقول أيضا: قوله تعالى: {أشحة على الخير}، فيه ثلاثة أوجه:
أحدهما: على قسمة الغنيمة، قاله يحيى بن سلام.
الثاني: على المال ينفقونه في سبيل الله، قاله السدي.
الثالث: على النبي صلى الله عليه وسلم بظفره . (85)
وقال تعالى {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله
هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة}
[آل عمران: 18].

وقال صلي الله عليه وسلم فوق ما ذكرنا من أحاديث في
تعريف الشح: وكلها في ذمه: (مثل البخيل والمنفق كمثل
رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما
المنفق فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفى
بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت
كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع . (86)
يقول الإمام الخطابي رحمه الله: هذا مثل ضربه رسول الله
صلى الله عليه وسلم للجواد المنفق، والبخيل الممسك،
وشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعا يستجن بها
- يعني يستتر - فصبها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يلبس
إنما يقع على موضع الصدر، والثديين إلى أن يسلك لابسها يديه
في كميتها، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمر سفلا، فجعل
صلى الله عليه وسلم مثل المنفق مثل من لبس درعا سابعة
فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه، وحصنته، وجعل
البخيل كرجل كانت يداه مغلولتين إلى عنقه، ناتئتين دون
صدره، فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينهما، وبين أن تمر

84 - انظر: النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي 3/312 .

85 - انظر: النكت والعيون 3/313 .

86 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب مثل المتصدق والبخيل 2/142، 143 وكتاب
الجهاد: باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم والقميص في الحرب 4/50. وكتاب الطلاق: باب
الإشارة في الطلاق والأمور 7/67، وكتاب اللباس: باب جيب القميص عند الصدر وغيره 7/185. ومسلم في
الصحيح: كتاب الزكاة: باب مثل المنفق والبخيل 2/708، 709 رقم 1021 (75-77)، والنسائي في السنن:
كتاب الزكاة: باب صدقة البخيل 2/37، 38 رقم 2327-2329 (1-3) (الكبرى) 72-5/3/70 (المجتبى). وأحمد في
المسند 2/256، 522، 523 كلهم من حديث أبي هريرة DDG 9FG 16J مرفوعا، واللفظ للبخاري.

سُفلا على البدن، واجتمعت في عنقه، فلزمت ترقوته، فكانت ثقلا ووبالا عليه من غير وقاية له، أو تحصين لبدنه. وحقيقة المعنى: أن الجواد إذا هم بالنفقة اتسع لذلك صدره، وطاوعته يداه فامتدتا بالعطاء والبذل، وأن البخيل يضيق صدره، وتنقبض يداه عن الإنفاق في المعروف والصدقة. وإلى هذا المعنى أشير - والله أعلم - في قوله عز وجل: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء} [المائدة: 64]. (87)

ثالثا: أسباب الشُّح

وللشح أسباب توقع وبواعث تدعو إليه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث:

1 - الوسط الذي يعيش فيه المسلم.

فقد يعيش المسلم في وسط معروف بالشح، ونعني بالوسط هنا القريب - وهو البيت - والبعيد وهو المجتمع - ولا تكون لدى هذا المسلم الحصانة الكافية، وحينئذ يتأثر بهذا الوسط، وتنتقل عدواه إليه، فيبخل بكل بر أو معروف: مالا أو غيره، في يده أو في يد غيره.

ولهذا المعنى وغيره أكد الإسلام على ضرورة نظافة وطهارة واستقامة الوسط الذي يعيش فيه المسلم. وقد ذكرنا غير مرة، وفي أكثر من آفة بعض النصوص الداعية إلى ذلك سواء في البيت أو في المجتمع.

2 - حب الدنيا مع توهم الفقر.

87 - انظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري 1/769، 770 وعنه نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري 3/306 بتصرف كثير.

وقد يكون حب الدنيا بيريقيها وزخارفها، وزينتها من الأسباب المؤدية إلى الشح، حيث يتوهم من ابتلاه الله بحب الدنيا أنه إن أعطى فسيخلو جيبه، وستضيع صحته وعافيته وسيريق ماء وجهه، وتذهب مكانته ومنزلته بين الناس، ويبدد أوقاته، ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله المادية والمعنوية.

وخير له أن يمسك بره ومعروفه عن الناس كي تدوم له دنياه، ناسيا أو متناسيا أن الله يخلف على عبده كما قال: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه} [سبا: 39]، ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها ذم الله عز وجل حب الدنيا، والمحبين لها، إذ يقول الله سبحانه: {كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة} [القيامة: 21 - 20].

يقول الماوردي: قوله {كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة} فيه وجهان: أحدهما: تحبون ثواب الدنيا، وتذرون ثواب الآخرة، قاله مقاتل، وثانيهما: تحبون عمل الدنيا، وتذرون عمل الآخرة. (88)

ويقول سبحانه: {إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا} [الإنسان: 27].

ويقول سبحانه: {وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة} [إبراهيم: 2 - 3].
{ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة} [النحل: 106-107].

3 - إهمال النفس من المجاهدة.

وقد يكون إهمال النفس من المجاهدة من بين الأسباب التي توقع في الشح، ذلك أن المرء مجبول بفطرته على الشح، كما

88 - انظر: النكت و العيون 4/361.

قال سبحانه: {إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه
لحب الخير لشديد} [العاديات: 6 - 8].

فقد فسر العلماء الخير هنا بالمال، أو بالدنيا، إذ يقول الماوردي:
قوله: {وإنه لحب الخير لشديد} يعني الإنسان، وفي الخيرها
هنا وجهان: الأول: المال، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة،
والثاني: الدنيا، قاله ابن زيد، ويحتمل ثالثاً: أن الخيرها هنا:
الاختيار، ويكون معناه، وإنه لحب اختياره لنفسه شديد . (89)
وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يزال قلب الكبير
شباباً في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل (90)
وفي رواية: (يكبر ابن آدم، ويكبر معه اثنتان: حب المال، وطول
العمر) . (91)

فقد قال الإمام النووي رحمه الله: هذا مجاز، واستعارة، ومعناه:
أن قلب الشيخ كامل الحب للمال، متحكم في ذلك، كاحتكام
قوة الشباب في شبابه، هذا صوابه، وقيل في تفسيره غير هذا
مما يرتضي . (92)

ونقل الحافظ ابن حجر عن بعض العلماء بيان الحكمة في
التخصيص بهذين الأمرين، وخلاصته: أن أحب الأشياء إلى ابن
آدم نفسه، فهو في بقائها، فأحب لذلك طول العمر، وأحب
المال، لأنه من أعظم الأسباب في دوام الصحة التي ينشأ عنها
غالباً طول العمر، فكلما أحس بقرب نفاذ ذلك اشتد حبه له، و
رغبته في دوامه . (93)

أجل، إن المرء مجبول بفطرته على الشُّح - كما رأينا من هذه
النصوص - وقد يستسلم هذا المرء إلى هذا الذي فطر عليه، ولا

89 - انظر: النكت و العيون 4/502، 503.

90 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في

العمر 8/111 من حديث أبي هريرة DDG 9FG 16J مرفوعاً بهذا اللفظ.

91 - هذه الرواية أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في
العمر 8/111، وأحمد في المسند 3/115، 119، 169، 275. كلاهما من حديث أنس بن مالك مرفوعاً، واللفظ
للبخاري.

92 - انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني 111/241.

93 - انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني 111/241.

يسوس نفسه، ولا يجاهدها، وتكون العاقبة تمكن هذا الشُّح من نفسه بصورة يصعب معها العلاج.

4 - الاستعلاء و التكبر في الأرض بغير الحق .

وقد يكون الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق من أسباب الوقوع في الشُّح، ذلك أن المستعلي، أو المتكبر في الأرض بغير الحق رسم لنفسه صورة معينة، وأحاطها بهالة خاصة، ويملي عليه هواه، وتوسوس له نفسه الأمانة بالسوء، وبغريه أقرانه من شياطين الجن والإنس، وتزين له الدنيا - أنه لا بد له كي يحتفظ بهذه الصورة التي رسمها لنفسه، وتلك الهالة التي أحاطها بها ألا يأتي ما فيه عون، وبر للآخرين، إذ هم المطالبون في خدمته وحاجته لا يكون هو في خدمتهم وحاجتهم، وحينئذ يقع في آفة الشُّح والعياذ بالله.

5 - عدم اليقين بما عند الله .

وقد يكون عدم اليقين بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة هو الباعث على الشُّح. ذلك أن من لم يصدق تصديقا لا يقبل الشك بحال أن الله يخلف على العبد أكثر مما يعطي هذا العبد، بل هو المانح ابتداء من غير حول من الخلق، ولا قوة ولا طول. من لم يصدق بذلك يبخل بل يشح. وقد لفت رب العزة النظر إلى هذا السبب حين قال: {وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى} [الليل: 8 - 10].

يقول الماوردي: وفي قوله: {وأما من بخل} وجهان: أحدهما: بخل بماله الذي لا يبقى، قاله ابن عباس والحسن، والثاني: بخل بحق الله تعالى، قاله قتادة، {واستغنى} فيه وجهان: أحدهما: بماله، قاله الحسن، والثاني عن ربه، قاله ابن عباس: {وكذب

بالحسنى { فيه التأويلات السبعة - التي ذكرها في قوله :
{ وصدق بالحسنى } وهي:
أحدها: كذب بتوحيد الله وهو قول: لا إله إلا الله، قاله الضحاك،
الثاني: بموعد الله، قاله قتادة، الثالث: بالجنة، قاله مجاهد،
الرابع: بالثواب، قاله خصيف، الخامس: بالصلاة، والزكاة،
والصوم، قاله زيد بن أسلم، السادس: بما أنعم الله عليه، قاله
عطاء، السابع: بالخلف عن عطائه، قاله الحسن، ومعاني أكثرها
مقاربة . (94)

6 - الحقد.

وقد يكون الحقد من بين الأسباب التي توقع في الشُّح.
ذلك أن المرء إذا كان حاقداً على غيره فإنه سيسعى جاهداً ألا
ينفعه بنافعة من نفس، أو مال، أو هما معاً، وهذا أمر بديهي
المح إليه رب العزة، وهو يتحدث عن موقف الأنصار من
المهاجرين فقال: {والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم
يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا
ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح
نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: 9].
فقد بين سبحانه في هذه الآية أن الذي حمل هؤلاء الأنصار على
التضحية التي وصلت إلى حد الإيثار، إنما هو الإيمان التابع من
سلامة الصدر من الأحقاد والذي أثمر المحبة والمودة والموالاتة.
يقول الماوردي: قوله: {يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في
صدورهم حاجة مما أوتوا} فيه وجهان: أحدهما: غيرة وحسداً
على ما قدموا به من تفضيل وتقريب، وهو محتمل، والثاني:
يعني حسداً على ما خصوا به من مال الفيء، وغيره، فلا
يحسدونهم عليه، قاله الحسن . (95)

94 - انظر: النكت والعيون 4/467، 468.

95 - انظر: النكت والعيون 4/212.

7 - الغفلة عن العواقب المترتبة عن الشح.

وأخيراً قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الشح: دينية أو دنيوية، على العاملين، أو على العمل الإسلامي هي السبب في الوقوع في الشح، فإن من جهل عاقبة الشيء الضارة، وأثره المهلك، تردى في هذا الشيء وهو لا يدري.

رابعاً : آثار الشح.

وللشح آثار ضارة، وعواقب مهلكة، على العاملين والعمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ- على العاملين.

فمن آثار الشح على العاملين:

1 - حمل النفس على الوقوع في كل إثم و رذيلة.

وخلاصة وفحوى هذا الأثر: أن من ابتلاه الله بداء الشح فبخل بكل بر ومعروف في يده أو في يد غيره، لا بد له من عمل يشغل به نفسه، وهذا العمل لا يخرج أن يكون توظيفاً للنفس في الإتيان بكل إثم و رذيلة، من منطلق [أن نفسك التي بين جنبيك، إن لم تشغلها بالحق تشغلتك بالباطل]. ولقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآثام والرذائل التي يثمرها البخل حين قال في الحديث الذي تقدم في تعريف الشح: (.. واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم) . (96) وفي رواية: إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا . (97)

96 - الحديث بروايته سبق تخريجه.

97 - الحديث بروايته سبق تخريجه.

وقد فهم ذلك الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، إذ قدمنا عن أبي الهياج الأسدي قوله: كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلا يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إني إذا وقيت شح نفسي: لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئا، وإذا الرجل: عبد الرحمن بن عوف . (98)

2 - القلق والاضطراب النفسي .

والأثر الثاني الذي يتركه الشُّح على العاملين: إنما هو القلق والاضطراب النفسي، وذلك أن الشحيح صار غارقا في الآثام والرذائل: صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها كما قدمنا، ومثل هذا الصنف من الناس يعاقبه الله بأشد العقاب في الدنيا، وهو القلق والاضطراب النفسي، مصداقا لقوله سبحانه: {ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا} [الجن: 17]، {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} [طه: 124].

3 - العذاب الشديد في الآخرة .

ولا يقف أثر الشُّح على العاملين عند حد العقاب في الدنيا بالقلق والاضطراب النفسي، بل يتعداه إلى عقاب الآخرة، وهو العذاب الشديد في نار جهنم، وهذا الأثر الثالث. قال تعالى: {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين} [النساء: 14]، {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: 23].

ب- على العمل الإسلامي .

وأما آثار الشُّح على العمل الإسلامي فكثيرة أيضا، وأهمها:

1 - الفرقة والتمزق .

98 - الأثر سبق تخريجه.

ذلك أن عمل كل المنتمين إليه، والقائمين به أو أكثرهم معروف بالشح، لا يمكن أن يجمع الله هؤلاء على قلب رجل واحد أبدا بحيث يصيرون الروح الواحد، والفكر الواحد، والمشاعر الواحدة ويصدرون عن رأي واحد، وإن تعددت منهم الأجساد، بل على العكس يمزقهم الله شر ممزق، جزاء وفاقا.

2 - طول الطريق وكثرة التكاليف.

وإذا ابتلي العمل الإسلامي بالفرقة والقطيعة بين أهله، ومزقوا شر ممزق، كانت النتيجة: تمكن العدو، وإحكامه القبضة على أعناقنا وتضييق الخناق علينا، فتطول الطريق، وتكثر التكاليف، على النحو الذي نشهده، ونعيشه نحن المسلمين اليوم.

خامسا: علاج الشُّح.

وما دمنا قد وقفنا على ماهية الشُّح، ومظاهره، وأسبابه وآثاره على العاملين، وعلى العمل الإسلامي فقد أصبح من السهل علينا وصف الدواء، بل الوقاية من هذا الداء، وإليك السبيل:

1 - النظر في العواقب والآثار المترتبة على الشُّح في الدنيا والدين، فإن مثل هذا النظر مما يخوف النفوس، ويحركها من داخلها، الأمر الذي ييسر عليها سبيل الإقلاع، والتخلص من هذا الداء.

2 - اليقين التام بما عند الله من الأجر والمثوبة، والنعيم المقيم {وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون} [القصص: 60]، {وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون} [الشورى: 36]، {ما عندكم ينفد وما عند الله باق} [النحل: 96]، {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} [سبا: 39].

3 - العيش الطويل مع كتاب الله عز وجل للوقوف على خبر وعاقبة أهل الشُّح والبخل، وكذلك خبر وثواب أهل العطاء

والجود، الأمر الذي ييسر علينا سبيل التخلص من أخلاق
الأشحاء، ويحملنا على التحلي بأخلاق الأجواد ممن وصفنا.
3 - دوام النظر في سنة وسيرة وهدى نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم مع النعمة التي أنعم الله بها عليه من مال أو غيره،
وكيف كان من أحرص الخلق على إنفاق هذه النعمة، وتوظيفها
في مرضاة الله عز وجل توظيفاً كاملاً دون شح أو بخل : إذ
يقول ابن عباس رضي الله عنهما في صفته صلى الله عليه
وسلم: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان
أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل
ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه
وسلم أجود بالخير من الرياح المرسلة . (99)
قال الحافظ ابن حجر: قوله: فيدارسه القرآن، قيل الحكمة
فيه: أن مدارس القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس،
والغنى سبب الجود، والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن
ينبغي، وهو أعم من الصدقة . (100)
ولقد ذكر ابن القيم في كتابه مدارج السالكين مراتب عشرة
للجود: مثل الجود بالنفس، والجود بالجاء، والجود بالراحة
والرفاهية، والجود بالعلم، والجود بالبدن، والجود بالبشر وبسط
الوجه، والجود بالصبر، والجود بالعفو والصفح، والجود بكف
الأذى، والجود بالمال والتعفف عما في أيدي الناس ، (101) وما
من شك في أنه صلى الله عليه وسلم كان مصدر هذه المراتب
تلقاها عن ربه وحيا، ثم حولها إلى واقع عملي في دنيا الناس،
أجل إنه لا بد من دوام النظر في سنة وسيرة وهدى نبينا محمد

99 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي: باب منه 1/5، وكتاب الصوم: باب أجود ما كان
النبى صلى الله عليه وسلم يكون في رمضان 3/33، وكتاب بدء الخلق: باب بدء ذكر الملائكة 4/137، وكتاب
المناقب: باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم 4/229، وكتاب الأدب: باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره
من البخل، 8/16، ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس
بالخير من الرياح المرسلة 4/1803، رقم 1804 (50) والنسائي في السنن: كتاب الصيام: باب الفضل
والجود في شهر رمضان 2/64 رقم 2405 (الكبرى) 4/126.125 (الصغرى) وأحمد في المسند 1/230، 231،
288، 363، 366، 367، 373 كلهم من حديث ابن عباس '16J' DDG 9FGE واللفظ للبخاري.

100 - انظر: فتح الباري 1/31.

101 - انظر: مدارج السالكين 2/293-296 بتصرف ككثير.

صلى الله عليه وسلم وما كان عليه من الجود بنعمة الله عليه، وبذلها فيما فيه مرضاته ونفع عباده على النحو الذي بينا، فلعل ذلك يحرك نفوس الأشجاء ويحملهم على التخلص من الشح، ثم التحلي بالجود اقتداءً وتأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم.

5 - مطالعة أخبار الأجراد من البشر، ولا سيما أبناء أمتنا المسلمة على نحو ما أثر عن قيس بن سعد بن عبادة، و كان من الأجراد المعروفين: أنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة، فحضر زوجها، فقالت: إنه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر، وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا، فلما طلع النهار إذ نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قرأى؟ ثم إنه لحقنا، وقال لتأخذنه أو لأطاعنكم برمحي، فأخذناه وانصرف. (102)

وعلى نحو ما حفظ عن مفتي الديار المصرية الأسبق المرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف، إذ أوى في داره واحداً من أبناء الحركة الإسلامية الفارين من جحيم زعماء ثورة يوليو المصرية المباركة لعشر سنين، وهو يعلم تمام العلم أنه لو كشف أمره، فإن رقبته هي ثمن هذا الإيواء، ولكن جوده هو الذي حمله على ذلك مستعيناً بالله. نعم إن مطالعة أخبار هذا الصنف من البشر

له دور كبير في تحريك الأشحاء من داخلهم، علمهم يتوبون أو يذكرون.

6 - الانسلاخ من الوسط المعروف بالشح والارتماء في الأوساط المعروفة بالجود والسخاء، فإن مثل ذلك يحمل الشح على الاقتداء والتأسي، أو على الأقل المحاكاة والتشبه.

7 - التخلص من داء الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق، وعلى نحو ما رسمنا في الجزء الأول من هذه الآفات، فإن من تحرر من الاستعلاء، والتكبر في الأرض بغير الحق يسهل عليه أن يتحرر بعد ذلك من الشح على اعتبار أنه ثمرة من ثماره المرة.

8 - تطهير الصدر من الأحقاد، فإن الصدر إذا طهر من الأحقاد سهل على صاحبه أن يتحرر من الشح، وربما تجاوز ذلك إلى المواساة بل الإيثار، على نحو ما جاء في كتاب الله عن الأنصار {والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} [الحشر: 9].

9 - مجاهدة النفس، وأخذها بالعزيمة، وحملها حملاً على ترك الشح وأن تتحلى بالمواساة بل بالإيثار، ويحسن أن يأخذها صاحبها بالتدريج مع الترغيب تارة، والترهيب أخرى، ويصبر على ذلك زماناً، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة توصل بسرعة إلى المراد، وصدق الله الذي يقول: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين} [العنكبوت: 69].

10 - كثرة الدعاء والضراعة إلى الله الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، فإن هذا الدعاء وهذه الضراعة إن كانا صادقين أجاب الله، وأعان على النفس، ورزق التخلص من هذا الداء، وكيف لا يكون الأمر كذلك، والله سبحانه يقول: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: 60].

11 - النظر إلى النعم التي أفاض الله علينا على أنها ليست ملكا لنا حتى نمنعها عن عباده، وإنما هي ملك لله، ونحن أمناء أو خزنة فقط على هذه النعم، ومن واجب الأمين أو الخازن أن يتصدق وفق مراد صاحب النعمة، وقد دعا صاحب النعمة إلى إنفاقها على عباده، و في مرضاته، مع الوعد الحق بأنه سيخلف أضعافا مضاعفة، إذ يقول سبحانه: {أمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} [الحديد: 7]، {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} [سبا: 39].

12 - محاسبة النفس أولا بأول، فإن المحاسبة لها دور كبير في التخلص من هذا الداء، ولا سيما إذا كان مع المحاسبة تأديب للنفس، واستئصال لدائها عن طريق العقاب.

13 - التذكير الدائم بكل ما يتصل بهذه الآفة على النحو الذي ذكرنا، كما قال سبحانه وتعالى: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} [الذاريات: 55] { فذكر إن نفعت الذكرى} [الأعلى: 9].

14 - فتح مجالات أو ميادين يمارس فيها الأشحاء صنوف البر والمعروف، ويهون عليهم أن يوظفوا ما لديهم من طاقات وإمكانات.

15 - تشجيع هذا الصنف من الناس حين يأتي برا ومعروفا بالثناء والمدح، فإن المرء كثيرا ما ينجح مع نفسه بالثناء والمدح على نحو ما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: في مسألة غير الشح، إذ يقول: كنت غلاما شابا عزبا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكنت أبيت في المسجد، وكان من رأى منا ما قصه على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: اللهم إن كان لي عندك خير، فأرنا منا ما يعبره لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فتمت، فرأيت ملكين أتيا بي، فانطلقا بي، فلقيهما ملك آخر، فقال لي: لن تراع، إنك رجل صالح، فانطلقا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا فيها ناس قد

عرفت بعضهم، فأخذا بي ذات اليمين، فلما أصبحت ذكرت ذلك لحفصة، فزعمت حفصة أنها قصتها على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (إن عبد الله رجل صالح لو كان يكثر الصلاة من الليل). (103)

فقد أثر هذا الثناء في ابن عمر، قال الزهري: وكان عبد الله بعد ذلك يكثر الصلاة من الليل.

16 - الوقوف على عواقب الأشحاء والبخلاء كأصحاب الجنة المذكورين في سورة القلم، ويمكن الاعتماد على كتاب البخلاء للجاحظ في تغطية هذا الجانب، فإن مثل ذلك مما يحهل العقلاء غالبا على تجنب ما يؤدي إلى هذه العواقب، أعني: الشح، وما ذلك على الله بعزير.

¹⁰³ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التهجد: باب الفضائل من تعار من الليل فصلى 2/69، وكتاب التعبير: باب الأمن وذهاب الروع في المنام، وباب الأخذ على اليمين في النوم 9/51، 52 وكتاب فضائل الصحابة: باب مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب 31، 5/30 'DDG 9FGE' 16J، ومسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل عبد الله بن عمر 1928، 4/1927 'DDG 9FGE' 16J، رقم 2478، 2479 (139)، وابن ماجه في السنن: كتاب تعبير الرؤيا: باب تعبير الرؤيا 2/1291، وأحمد في المسند 2/146 كلهم من حديث عبد الله بن عمر 'DDG 9FGE' 16J مرفوعا، واللفظ للبخاري.

الآفة الخامسة والعشرون الغضب

والآفة الخامسة والعشرون التي أصابت وتصيب نفرا من العاملين وكانت سببا في كثير مما نشهده على ساحة العمل الإسلامي اليوم إنما هي: "الغضب". ولا بد من أن نعمل جاهدين على التخلص بل التحصن ضد هذه الآفة، وبداية ذلك أن يكون في أيدينا تصور واضح ودقيق عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، وذلك من خلال هذه الجوانب:

أولا: تعريف الغضب:

لغة

يأتي الغضب في اللغة على معان، منها:
أ - السخط، أو عدم الرضى بالشيء، وعن الشيء، نقول:
غضب عليه غضبا، ومغضبة: سخط أولم يرض، وغضب له:
سخط أولم يرض على غيره من أجله.
ب - العض على الشيء، نقول: غضبت الخيل على اللحم:
عضت.
ج - العبوس، نقول: ناقة غضوب، وامرأة غضوب: عبوس.
د - ورم ما حول الشيء، تقول: غَضِبْتُ عينه، وِعْضِبْتُ: ورم ما حولها.
هـ - الكدر في المعاشرة والخلق، نقول: هذا عُصَابِي: كدر في معاشرتي وخالقه.
و - الجُنَّة: تتخذ من جلود الإبل، تلبس للقتال، والغضبة: جلد المسن من الوعول حين يسليخ. (104)

104 - انظر: لسان العرب 2/648 - 651، والمعجم الوسيط 2/654، والصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص 819، مادة: "غضب" بتصرف كثير.

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعا، إذ منها ما يعبر عن حقيقة الغضب، وهو المعنى الأول، ومنها ما يعبر عن مظاهره وأماراته الدالة عليه، وهو المعنى الثاني، والثالث، والرابع، ومنها ما يعبر عن آثاره وهو المعنى الخامس، ومنها ما يعبر عن هدفه، وغايته، وهو المعنى السادس والأخير.

اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فهو: تغير داخلي أو انفعال يحمل على السطو والانتقام شفاء لما في الصدر، وأشد منه الغيظ حتى قالوا في تعريفه: إنه شدة الغضب . (105)

ثانياً: مظاهر، وحقيقته في الإسلام:

وللغضب مظاهر دالة عليه، وأمارات يعرف بها، ومنها:

1 - انتفاخ العروق والأوداج مع احمرار الوجه والعينين.

2 - عبوس وتقطيب الوجه والجبين.

3 - العدوان على الغير باللسان، أو باليد، أو بالرجل، أو ما يقوم مقام ذلك.

4 - مقابلة العدوان بمثله وأشد مع عدم تقدير للعواقب الناجمة عن ذلك ، (106) وهلم جرا.

وحقيقة الغضب في الإسلام: أن منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

* فما كان منه دفاعاً عن نفس، أو عرض، أو مال، أو دين، أو حقوق عامة، أو نصرة مظلوم فمحمود. ويشهد بذلك أدلة كثيرة منها:

1 - أن الله خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض كما قال سبحانه:

105 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/247، والتعريفات للجرجاني ص 162 بتصرف كثير.

106 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/247 بتصرف كثير.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} (البقرة: 30).

وحتى ينهض الإنسان بهذه المهمة خلق مكونا من روح، وعقل، وبدن، واقتضت حكمته سبحانه: أن يجعل البدن في خدمة الروح، وأن يكون البدن في هيئة تجعله صالحا لخدمة الروح مدة بقاء الإنسان في الأرض، فخلق فيه قوتين: الأولى: القوة الشهوية، ومهمتها جلب كل ما ينفع البدن ويغذيه. الثانية: القوة الغضبية، ومهمتها دفع كل ما يضر البدن ويهلكه. كما خلق له الأعضاء والجوارح لتكون في خدمة كل من القوة الشهوية والقوة الغضبية، وخلق له العقل كذلك ليكون بمثابة مشير أو ناصح للروح، بحيث إن مالت كل من القوتين الشهوية والغضبية، عن حد الاعتدال، أشار العقل على الروح أو نصحه بضرورة اتخاذ موقف صارم مع القوة التي مالت، ليعود للإنسان توازنه وتكامله.

وعلم الله أن العقل قد يعتريه ما يحول بينه وبين بذل النصح والإرشاد لسبب أو لآخر، فأنزل له منهاجا يتمثل في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ينير الطريق، ويهدي للحق، ويحفظ التوازن والتكامل بين سائر الجوانب التي يتكون منها الإنسان، كي تبقى شخصيته سوية مستقيمة، ليس بها خلل أو اعوجاج. (107)

فالغضب إذن خلق في الإنسان ليدافع به عن كل ما تقدم، ويصون به الحرمات، والمقدسات.
2 - وأن الله - عز وجل - أثنى على أصحاب نبيه بأنهم أشداء على الكفار، فيقول: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} (الفتح: 29).

والشدة على الكفار لا تنبعث إلا عن الحمية، والغضب، وهم لم يغضبوا فيما أخبر عنهم ربهم إلا له سبحانه وتعالى، حيث يقول:

107 - انظر: إحياء الدين للغزالي 3/247 بتصرف كثير.

{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
 فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ
 هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ
 عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر).

يقول ابن جرير- رحمه الله : " قوله : {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ
 مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} : يقول تعالى ذكره: محمد رسول الله،
 وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار:
 غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم " . (108)

3 - وذكر الله - عز وجل - أن من صفات الصنف المرشح
 لحماية دين الله والتمكين له في الأرض بعد إذ يعرض من
 يعرض، إنما هي العزة على الكافرين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 مَنِ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ
 أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} (المائدة: 54). يقول
 ابن جرير- رحمه الله:

" ويعني بقوله {أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} أشداء عليهم، غلظاء بهم،
 من قول القائل: قد عزني فلان إذا أظهر العزة من نفسه له،
 وأبدى له الجفوة والغليظة " . (109)

4 - وقال تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
 عَلَيْهِمْ وَمَا وَاهُمْ جَحَنَّمُ وَسِيسَ الْمَصِيرُ} (التوبة، التحريم: 9).
 ومعلوم أن الغلظة على هؤلاء إنما تتبع من الغضب عليهم
 بسبب كفرهم ونفاقهم المؤدين إلى الصد عن سبيل الله،
 وإرادتها عوجا.

5 - وجاء في صفته صلى الله عليه وسلم أنه " ما خير بين أمرين
 إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس

108 - انظر: جامع البيان 26/11/69.

109 - انظر: جامع البيان 6/4/185.

منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها".⁽¹¹⁰⁾

وعلى هذا النوع من الغضب يتنزل قول الشافعي رضي الله عنه: "من استغضب فلم يغضب فهو حمار".⁽¹¹¹⁾
*وما كان منه انتقاما لنفس فمذموم، وهو المقصود هنا، وبذمه جاءت الأخبار والآثار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".⁽¹¹²⁾

وعن أبي هريرة أيضا: أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: "لا تغضب"، فردد مرارا، قال: "لا تغضب".⁽¹¹³⁾
وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما تعدون الصرعة فيكم؟"، قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: "ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب".⁽¹¹⁴⁾

¹¹⁰ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المناقب: باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم 4/230، وكتاب الأدب: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يسروا ولا تعسروا)، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس 8/36، 37، وتهاب الحدود باب إقامة الحدود والانتقام لحرمة الله 8/198، 199 من وجهين عن مالك، ومن وجه عن عقيل، كلاهما عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به، ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب مبادئه صلى الله عليه وسلم للأثم واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمة الله 4/1813، 1814 رقم (2327) من حديث ابن شهاب، وهشام بن عروة كلاهما عن عروة، عن عائشة به، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في التجاوز في الأمر 4/250 رقم (4785) من حديث ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به، ومالك في الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب ما جاء في حسن الخلق ص 563، رقم (2) من حديث ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة به، وأحمد في المسند 6/85، 114، 116، 130، 162، 181، 182، 189، 191، 209، 223، 232، 262 من عدة أوجه عن ابن شهاب، وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة عن عائشة به، وبنحوه مطولا ومختصرا.

¹¹¹ - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/247، وتوالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس لابن حجر العسقلاني، الفصل السابع في سياق شيء من بليغ كلامه نظما ونثرا: ذكر شيء من منثور ص 136.

¹¹² - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب الحذر من الغضب 8/34، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب 4/2014 رقم (2609)، ومالك في الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب ما جاء في الغضب ص 565 رقم (12)، و 2 وأحمد في المسند 2/236، 268، 517، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ للبخاري ومسلم.

¹¹³ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب الحذر من الغضب 8/35، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء ني كثرة الغضب 4/326 رقم (2020)، ومالك في الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب ما جاء في الغضب ص 565 رقم (12)، وأحمد في المسند 2/362، 466، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ للبخاري، إلا مالكا، فإنه عنده مرسل من حديث حميد بن عبد الرحمن بن عوف، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه".

¹¹⁴ - الحديث جزء حديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب 4/2014 رقم (2608)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب من كظم غيظا 4/248 رقم (4779)، وأحمد في المسند 1/382، 383، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا، وأوله عند مسلم: أن رسول

وعن عبد الله بن عمرو: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينقذني من غضب الله؟ قال: "لا تغضب" . (115)
وقال أبو الدرداء: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: "لا تغضب" . (116)

وقال عبد الله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع . (117)

وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب، قال في خطبته:
"أفلح منكم من حفظ من الطمع، والهوى، والغضب" . (118)
وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة، فقال: اترك الغضب . (119)

تلك هي حقيقة الغضب في الإسلام، وقد لخص هذه الحقيقة بأسلوب سهل ميسور الشيخ علي محفوظ نقلا عن الغزالي في الإحياء فقال:

للغضب ثلاث درجات:

الأولى: درجة الاعتدال، بأن يغضب ليدافع عن نفسه، أو دينه، أو عرضه، أو ماله، أو ليدافع عن الحقوق العامة، ونصرة المظلوم، وتلك الحالة التي من أجلها خلق الغضب، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران، وطلبها نظام المجتمع الإنساني، فإن التنافس في هذه الحياة، والتزاحم على مرافقها يستدعي دفاعا قويا عن النفس، والدين، والمال، والعرض والحقوق العامة، ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى،

الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما تعدون الرقوب فيكم" - يعني المصاب بموت أولاده، قال: قلنا: الذي لا يولد له، قال: "ليس ذلك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا"، قال: "فما تعدون الصرعة فيكم؟... الحديث".

115 - الحديث أخرجه أحمد في المسند 2/175، وأورده الغزالي في إحياء علوم الدين 3/244، وعقب عليه العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بذيل الإحياء بقوله: أخرجه الطبراني في معارج الأخلاق، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد، وأن السائل عبد الله بن عمرو".

116 - الحديث أورده الغزالي في إحياء علوم الدين 3/245، وعقب عليه العراقي في المغني بذيل الإحياء بقوله: "أخرجه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن".

117 - هذا الأثر أورده الغزالي في إحياء علوم الدين 3/246.

118 - هذان الأثران أوردهما الغزالي في إحياء علوم الدين 3/246.

119 - هذان الأثران أوردهما الغزالي في إحياء علوم الدين 3/246.

وتقويض نظام الاجتماع؛ لأن من لا يَغضب لنفسه كان معرضاً للزوال من هذا الوجود، أو معرضاً لأن يسخره غيره تسخير الدواب التي لا تغضب لنفسها، ومن لا يَغضب لدينه، فإنه يكون عرضة لتقليد القوي في كل ما يراه ويستحسنه، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى، ومن لا يَغضب لعرضه لا يغار على نسائه، وتختلط الأنساب، وتشيع الفاحشة في طبقات الأمة، ويصبح الإنسان كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيرة ولا حمية، ومن لا يَغضب لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيراً معدماً، وإذا فشا سلب المال تعطل نظام العمل، بل بطلت الأعمال التجارية، والصناعية، والزراعية، واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضاً، وذلك شر ووبال في العاجل والآجل، ومن لا يغار للحقوق العامة، وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التي فطر الله الناس عليها، وفي مثله يقول الإمام الشافعي - رحمه الله: من استغضب فلم يَغضب فهو حمار؟ أي بليد الطبع، فاقد الحمية، والى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة).

الثانية: درجة التفريط، وهي أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال، بأن يضعف في الإنسان، أو يفقد منه رأساً، وتلك الحالة مذمومة شرعاً، وعقلاً؛ لأن من لا يَغضب لنفسه، أو لدينه، أو لعرضه، أو لماله، أو للمصالح العامة فهو جبان لم يجر على سنن الله في خلقه.

وفي ذلك خطر عظيم على الاجتماع؛ لأنه مثار الفوضى في جميع مرافق الحياة كما علمت.

الثالثة: درجة الإفراط، وهي أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال، ويغطي على العقل والدين، ويندفع في سبيل الشر اندفاعاً قد يؤدي إلى الهلاك من حيث لا يدري، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم، وشر الموبقات، ومعلوم أن الغضب في تلك الحالة مذموم شرعاً وعقلاً، وتتفاوت درجات

الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفا، فكلمما اشتد ضررها كان الغضب أكبر حجما، وأكثر ذما". (120)

ثالثا: أسباب الغضب:

وللغضب أسباب تؤدي إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

1 - البيئة المحيطة بالمرء:

والسبب الأول الذي يؤدي بالمرء إلى الغضب إنما يرجع إلى البيئة المحيطة بهذا المرء، أعمّ من أن تكون قريبة - وهي البيت، أو بعيدة - وهي المجتمع؛ إذ قد تحيط بالمرء بيئة مليئة بأشراار يحسبون التهور شجاعة، وطغيان الغضب الموجب للظلم رجولة، فتتأثر نفسه بذلك، وتصبح سرعة الغضب عادة له، وشعارا.

2 - المرء أو الجدل:

والسبب الثاني المؤدي إلى الغضب إنما يرجع إلى المرء أو الجدل بالباطل؛ ذلك أن كلا من المتخاذلين يريد الانتصار على الآخر، ولو بالباطل، وحين لا يتم له ذلك يغضب ويثور، قاصدا السطو أو الانتقام، لا سيما إذا كان يرى نفسه أقوى وأشد ممن يناظره أو يجادله.

ولعل هذا هو السبب في التحذير من المرء أو الجدل بالباطل على النحو الذي قدمنا في آفة: "المرء أو الجدل لا من هذه السلسلة أعني سلسلة: "آفات على الطريق".

3 - المزاج بالباطل:

120 - انظر: هداية المرشدين ص 263، 264.

والسبب الثالث المؤدي إلى الغضب إنما يعود إلى المزاح بالباطل؛ ذلك أن المزاح إذا تجاوز حدود الحق إلى الباطل أدى إلى الخصومة، وتنتهي الخصومة إلى إشعال نار الغضب في القلب بصورة تنعكس على الجوارح، فإذا هي ساعية إلى السطو والانتقام.

ولعل هذا هو السبب في أنه صلى الله عليه وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقا، وأنه نهى عن المزاح بالباطل، إذ يقول: "لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدة فتخلفه". (121)

4 - عدوان الآخرين بأي لون من ألوان العدوان:

والسبب الرابع الذي يؤدي إلى الغضب إنما يرجع إلى عدوان الآخرين بأي لون من ألوان العدوان، ذلك أن المرء إذا وقع عليه عدوان من الآخرين بأي لون من ألوان العدوان: سخرية، أو استهزاء، أو تجسسا وتتبعاً لعوراته، أو غيبة، ونميمة، أو سبا وتجريحا، أو اعتقالا وسجنا، أو ضربا وتعذيبا، على نحو ما تصنعه أكثر حكومات العالم الإسلامي - بل العربي على وجه الخصوص - مع بعض الشباب المتدين الغيور الذي أخطأ الطريق، الأمر الذي يثيره من داخله، ويحمله على الرد بصورة أو بأخرى.

ولعل هذا هو السبب في تحذير الله ورسوله من العدوان على الآخرين دون مبرر يقتضي ذلك، إذ يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بُئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}

121 - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللبر والصلة : باب ما جاء في المرء 4/316 رقم (1995) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله..." الحديث . (122)

5 - الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق:

والسبب الخامس الذي يؤدي إلى الغضب إنما يرجع إلى الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق؛ ذلك أن المستعلي المتكبر في الأرض بغير الحق يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستبقي عظمته ومنزلته بين الناس، فإذا طالبه أحد بحق استشاط غضبه، وكذا إذا نهاه عن رذيلة، أو عارضه في أي أمر كان، لا اعتقاده أنه كامل من جميع الجهات، فلا يصح لأحد أن يأمره، أو ينهاه، أو يقف في سبيله، وهو في الواقع ناقص من كل وجه، يحاول أن يجبر نقصه باستعلائه، وتكبره.

6 - نسيان النفس من المجاهدة:

والسبب السادس الذي يؤدي إلى الغضب إنما يعود إلى نسيان النفس من المجاهدة؛ ذلك أن أي داء يبتلى به الإنسان يتفاقم ويعظم، ويصبح كأنه قطعة من جيلة الإنسان حين يهمله، ولا يجاهد نفسه أن تفلح عنه، وتتخلص منه. ولهذا دعا الله - كما قدمنا غير مرة - إلى المجاهدة، فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (العنكبوت).

122 - الحديث سبق تخريجه في الجزء الثالث: آفة "سوء الظن".

7 - عدم قيام الآخرين بواجبهم نحو من ابتلى بالغضب:

والسبب السابع الذي يؤدي إلى الغضب إنما يرجع إلى عدم قيام الآخرين بواجبهم نحو من ابتلى بالغضب؛ ذلك أن الإنسان قد يعرف عجبه وأفته، ولكنه لضعفه أمام نفسه، وأمام إغراءات شياطين الإنس والجن، وزينة الحياة الدنيا، يعجز عن التخلص من هذا العيب، وهذه الآفة، وحينئذ لا بدّ له من عون الآخرين، ووقوفهم بجانبه حتى يتخلص من عيبه بالغضب، فإن هذا الغضب يتفاقم، ويعظم حتى يصبح وكأنه جزء من شخصية صاحبه لا ينفك عنه بحال.

8 - الوصف بما يراه المرء منقصة له أو عيبا:

والسبب الثامن الذي يؤدي إلى الغضب إنما يرجع إلى الوصف بما يراه المرء منقصة له أو عيبا؛ ذلك أن الإنسان إذا وصف بأوصاف يرى فيها انتقاصا له، ونيلا من كرامته بأن يقال له: لو كنت رجلا للقيت فلانا وفلانا، وأظن أنك ما تريد أن تلقى فلانا إلا فرقا أو خوفا من بأسه، وهكذا، الأمر الذي يحركه من داخله وينعكس ذلك على جوارحه فإذا هو محمر الوجه والعينين، مرغيا، مزبدا، ساعيا إلى السطو والانتقام على نحو ما جاء في سبب خروج أمية بن خلف إلى مصرعه يوم بدر: إذ يروي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول: "انطلق سعد بن معاذ معتمرا، فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: انتظر، حتى إذا انتصف النهار، وغفل الناس، انطلقت فطفت، فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة أمنا، وقد أوتيم محمدا وأصحابه، فقال: نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي، ثم قال سعد: والله، لئن منعتني

أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم: أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم، قال: والله، ما يكذب محمد إذا حدث، فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: إنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد، قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ، قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي، قال: فأراد ألا يخرج، فقال أبو جهل: إنك من أشرف الوادي، فسر يوما أو يومين، فسار معهم، فقتله الله" . (123)

وفي رواية عن ابن إسحاق، قال: وحدثني عبد الله بن أبي نجیح: "أن أمية بن خلف كان أجمع القعود، وكان شيخا جليلا، جسيما ثقيلًا، فأتاح عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراي قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي، استجمر، فإنما أنت من النساء، قال: قبحك الله، وقبح ما جئت به، قال: ثم تجهز، وخرج مع الناس" . (124)

وفي رواية: "أن أبا جهل هو الذي ما زال به يدفعه ويحرضه حتى قال: أما إذ غلبتني لأشترين أجود بغير بمكة" . (125)

فانظر كيف استطاع عقبة بن أبي معيط أو أبو جهل إغصاب أمية بن خلف إغصابا حمله على شراء أجود بغير ليشاركهم الخروج إلى بدر، وكانت وسيلة كل منهما في ذلك إنما هي وصف أمية بن خلف بما اعتبره انتقاصا، وعجبا، وإهانة له، ورأى أن أحسن وسيلة للرد على كل هذه الأوصاف، إنما هي الخروج مع القوم على أجود راحلة.

123 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام 4/249، 250 من حديث عبد الله بن مسعود بهذا اللفظ.

124 - انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير 1/294 نقلا عن ابن إسحاق.

125 - هذه الرواية أوردها الصالح في سبل الهدى والرشاد 4/72 نقلا عن البخاري.

9 - التذكير بالعداوات والثارات القديمة:

والسبب التاسع الذي يؤدي إلى الوقوع في الغضب إنما يرجع إلى التذكير بالعداوات والثارات القديمة ؛ ذلك أن المرء قد يكون له ثار عند آخرين، ويتنازل عنه ديانة أو إيماناً، وتلتقي القلوب ويكون الحب والإخاء، وهنا يعمل الحاقدون والحساد على تسويد هذه القلوب، والنيل من الأخوة بوسيلة أو بأخرى، ويتخذون من التذكير بالثارات القديمة وسيلة من أنجح الوسائل لذلك.

على نحو ما جاء في علاقة الأنصار - أوسهم وخزرجهم - فقد كانت بينهم حروب وثارات في الجاهلية، ولما جاء الإسلام أبطل هذه الثارات، وألف بين قلوبهم، وجمع كلمتهم.

وغازب ذلك اليهود، فحاولوا الوقيعة بينهم - علي ما أورده ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللُّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَمَن يَتَّصِمْ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (إلى قوله تعالى:) وَأَوْلِيكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ { (آل عمران).

إذ يقول: "وقد ذكر أن هاتين الآيتين من قوله: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } والآيات بعدهما إلى قوله: { وَأَوْلِيكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } نزلت في رجل من اليهود حاول الإغراء بين الحيين من الأوس والخزرج بعد الإسلام ليراجعوا ما كانوا عليه في جاهليتهم من العداوة والبغضاء، فعنفه الله بفعله ذلك، وقبح له ما فعل، ووبخه عليه، ووعظ أيضاً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وأمرهم بالاجتماع والائتلاف وذكر الرواية بذلك فقال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال: مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخاً قد

عسا في الجاهلية - يعني: كبر-عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد -يعني أمهم، وكانت تسمى قيلة - والله ما لنا معهم - إذا اجتمع ملؤهم - بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود، وكان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكروهم يوم بعث، وما كان قبله، وأنشدتهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعث يوما اقتتل في الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا، وتفاخروا، حتى توثب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قبيصة أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - فخرجوا إليها، وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج: بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: "يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا"، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاش بن قيس، وما صنع، فأنزل الله في شاش بن قيس

وما صنع: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن أَمَنَ تَبِعُوتَهَا عِوَجًا} (آل عمران)، وأنزل الله - عز وجل - في أوس بن قبيظي، وجبار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا مما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} إلى قول: {وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (آل عمران) . (126)

10 - الغفلة عن العواقب المترتبة على الغضب:

وأخيرا، قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الغضب فردية أو جماعية، دنيوية أو أخروية، هي السبب في الوقوع في الغضب؛ ذلك أن المرء إذا غفل عن الآثار والعواقب المترتبة على أمر ما وقع في ذلك الأمر من حيث لا يدري، ولا يشعر.

ولعل هذا هو السر في دعوة الشارع الحكيم إلى الفقه في الدين إذ يقول الله عز وجل في أول آيات الوحي: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق). ويقول: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة). {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} (طه). ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين... الحديث" . (127)

رابعا: آثار الغضب:

¹²⁶ - انظر: جامع البيان 4/3/16، 17.
¹²⁷ - الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة (الإعجاب بالنفس).

وللغضب آثار ضارة، وعواقب مهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ - على العاملين :

فمن آثار الغضب على العاملين:

1 - الإضرار بالبدن:

ذلك أن الغضب ينشأ من غليان الدم في القلب، ثم اندفاعه في العروق، كما يظهر من احمرار الوجه والعينين، وتكرار ذلك ينشأ عنه غالباً ضغط الدم، وربما تصلب الشرايين، ثم الشلل والعياذ بالله، وهكذا ينتهي الغضب إلى الإضرار بالبدن.

2 - نقصان الدين:

وذلك أن الغضب قد يؤدي بصاحبه إلى غيبة الآخرين، وربما إلى انتهاك أعراضهم، وسلب أموالهم وسفك دمائهم، وذلك كله إثم، ونقصان في الدين.

3 - عدم القدرة على الإمساك بزمام النفس:

ذلك أن العقل في ساعة الغضب يكون كالمستور أو كالمغطى، وإذا ستر العقل أو غطي صار الإنسان غير قادر على الإمساك بزمام النفس، وحينئذ يصدر منه ما لا يحمد عقباه، وما يؤدي إلى الندم، ولكن بعد فوات الأوان. وقد قال سليمان بن داود عليهما السلام: "إياك وكثرة الغضب، فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم" . (128)

وعن وهب بن منبه: "أن راهبا كان في صومعته، فأراد الشيطان أن يضلّه فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه، فقال له: افتح، فلم يجبه، فقال: افتح فإنني إذا ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه... قال:

128 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/245 - 246.

فولى مدبراً، فقال الراهب: ألا تسمع؟ قال: بلى، أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ فقال: الحدّة، إن الرجل إذا كان حديداً قلبته كما يقلب الصبيان الكرة" . (129)

وقال بعضهم لولده: "يا بني، لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدنيا كان دهاءً ومكراً، وإن كان للآخرة كان حلماً وعلماً، فقد قيل: الغضب عدو العقل، والغضب غول العقل" . (130)

4 - الوقوع في مذلة الاعتذار:

ذلك أن المغضب يقع منه حال الغضب ما لا يدري ولا يشعر به، وهذا بدوره يوقعه في مذلة الاعتذار. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ارتكاب كل ما يؤدي إلى الوقوع في مذلة الاعتذار، فقال: "إياك وكل ما يعتذر منه" . (131)

وكان بعضهم يقول: "إياك والغضب، فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار" . (132)

5 - العذاب الشديد:

إذ الغضبان كثير الخطأ، والوقوع في المعاصي والسيئات، وهذه توجب العذاب الشديد في الآخرة فقط، أو في الدنيا والآخرة جميعاً، وصدق الله إذ يقول: {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} (الجن)، {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} (طه: 124).

129 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/245 -- 246.

130 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/245 -- 246.

131 - الحديث أورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الأول: الجزء الرابع ص 77 حديث رقم (354) نقلاً عن الضياء المقدسي في المختارة من حديث شبيب بن بشر عن أنس بن مالك مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: قلت: وهذا سند حسن رجاله ثقات، وفي شبيب كلام لا

بضر" 132 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/246.

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول - وقد سأله عبد الله بن عمرو بن العاص: ما ينقذني من غضب الله؟ "لا تغضب" ،⁽¹³³⁾ وإذ يقول - وقد سأله أبو الدرداء قائلاً: دلني على عمل يدخلني الجنة؟: "لا تغضب" .⁽¹³⁴⁾

ب - على العمل الإسلامي :

ومن آثار الغضب على العمل الإسلامي:

1 - قلة كسب الأنصار والمؤيدين:

ذلك أن النفوس تألف العاقل المنضبط الحكيم في تصرفاته وتقبل عليه، وتلتف حوله، وتعينه وتؤازره ما استطاعت أما الطائش الأرعن في سلوكياته وتصرفاته، فإنها تعرض وتنفض عنه، وعليه فإذا كان العاملون لدين الله ممن يغضبون لأنفسهم ويطيرون لكل هيلة، ويستجيبيون لكل مثير دون تقدير للنتائج أو العواقب، فإن الناس لن يقبلوا على هؤلاء العاملين، ولن يؤازروهم، ويخسر العمل الإسلامي بذلك كثيرا من الأنصار والمؤيدين.

2 - الفرقة والتمزق:

وثمة أثر ثان على العمل الإسلامي من وراء الغضب، ألا وهو الفرقة والتمزق؛ ذلك أن الغضب للنفس يعني أن العمل لغير الله، وكل ما كان كذلك فلن يرجى من ورائه مودة، أو ترابط، بل على العكس تكون الفرقة والتمزق.

فقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" .⁽¹³⁵⁾

¹³³ - الحديث سبق تخريجه.

¹³⁴ - الحديث سبق تخريجه.

¹³⁵ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأنبياء: باب الأرواح جنود مجندة 5/162 من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب الأرواح جنود مجندة 4/2031 رقم)

3 - طول الطريق وكثرة التكاليف:

والأثر الأخير للغضب على العمل الإسلامي، إنما هو طول الطريق وكثرة التكاليف، وهذا أمر بدهي، إذ أن قلة كسب الأنصار، والمؤيدين، مع شيوع الفرقة والتمزق ينتهيان حتما بهذا العمل إلى طول الطريق وكثرة التكاليف.

خامسا: علاج الغضب:

وما دمنا قد وقفنا على ماهية الغضب، وحقيقة موقف الإسلام منه، والأسباب الحاملة عليه، وآثاره على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، فقد صار سهلا وميسورا أن نرسم طريق العلاج، بل طريق الوقاية من هذا الغضب، وتتلخص هذه الطريق في:

1 - التبصير بالآثار الضارة والعواقب المهلكة المترتبة على الغضب، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامي، دنيوية كانت أو أخروية، فإن مثل هذا التبصير يفيد في تحريك النفس من داخلها، فإذا هي ساعية في طريق العلاج، بل الوقاية من هذا الداء.

2 - تطهير البيئة التي يعيش فيها المرء في البيت أو في المجتمع من هذا الداء ما أمكن، وإلا لزم التحول إلى بيئة أو إلى وسط آخر نظيف، يساعد في التخلص بل الوقاية من هذا الداء.

3 - التداوي من المرء أو الجدل، وكذلك من المزاح بالباطل، فإن التداوي منهما يقضي على رافدين في غاية الأهمية بالنسبة للغضب، من باب أن القضاء على الداء ينبع من القضاء على أسبابه.

4 - عدم العدوان على الآخرين ظلما وعدوانا، فإن مثل هذا العدوان يحمل على الرد مهما تكن التكاليف والتضحيات، وهناك

(2638)، وأحمد في: المسند 2/295، 527، كلاهما من حديث أبي هريرة.

ألف طريق وطريق لعلاج الخطأ، وآخرها العدوان من باب: أن آخر الدواء الكي.

5 - التحرر من الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق، مع التحلي بنقيضهما، وهو التواضع، فإن ذلك من شأنه أن يحمل المعروفين بالغضب عند رؤية هؤلاء، وقد تحرروا من أمراضهم أو أدوائهم، أن يتخلصوا بل أن يتوقوا هذا الغضب.

6 - قيام الأمة - حكاما ومحكومين - بواجبها نحو المعروفين بالغضب، مرة بالنصيحة، ومرة بالإنكار، ومرة بالتخويف، ومرة بالثواب ومرة بالهجر والمقاطعة، وهكذا فإن القيام بمثل هذا الواجب يفيد كثيرا في التخلص بل الوقاية من هذا الداء.

7 - إنزال الناس منازلهم، وإعطائهم حقهم من الاحترام، والتقدير، وتجنب وصفهم بما لا يليق أو بما لا ينبغي، فإن هذا من شأنه أن يحمل على التخلص بل الوقاية من هذا الداء.

8 - عدم إثارة العداوات أو الثارات القديمة، فإن ذلك من شأنه أن يقضي، بل يقي الوقوع في هذا الداء.

9 - تغيير الحال التي يكون عليها الإنسان ساعة الغضب بأن يتوضأ أو يغتسل، ويجلس إن كان قائما، ويمرغ خده ووجهه في التراب إن كان جالسا، ويكثر من ذكر الله دعاءً، وتوبة واستغفارا، وثناء على الله - تبارك وتعالى - أو يمشي إن كان واقفا، وهكذا حتى تهدأ ثأثرته، ويعود إلى رشده وصوابه.

ولقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الدواء، إذ يقول سليمان بن صُرد: استبَّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه، مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم، قال: إني لست بمجنون. (136) ويقول صلى الله عليه

¹³⁶ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب صفة إبليس 4/150، 151، وكتاب الأدب: باب الحذر من الغضب 8/34، 35، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء يذهب الغضب 4/2015 رقم (2610)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب

وسلم في حديث طويل: "... ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض" الحديث . (137)

وعن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبي ذر قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا :
 " إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع " . (138)

وعن أبي وائل القاص قال: دخلنا على عروة بن محمد السعدي، فكلمه رجل فأغضبه، فقام، فتوضأ، ثم رجع وقد توضأ، فقال :
 حدثني أبي، عن جدي عطية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ" . (139)

10 - تذكير الغضبان بحاله وقت الغضب، وأنه أشبه ما يكون بالمجانين، أو بالوحش الهائج، وأن مثل هذا ما لا يليق بإنسان خلقه ربه في أحسن تقويم، وفضله علي كثير من خلقه إذ يقول :
 {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (الإسراء).
 {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ} (التين)، فعمل مثل هذا التذكير يفيد في العلاج بل الوقاية من الغضب.

11 - لفت النظر إلى ضرورة مجاهدة النفس ضد الغضب، وأن هذه المجاهدة دليل القوة والشجاعة حقا، إذ يقول صلى الله

ما يقال عند الغضب 4/249 رقم (4781)، كلهم من حديث سليمان بن صُرد مرفوعا، واللفظ للبخاري.
 137 - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللغتن: باب ما جاء ما أخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة 4/419، 420 رقم (2191)، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: "وهذا حديث حسن صحيح"، وأحمد في المسند 3/19، 61، كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا.
 138 - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب ما يقال عند الغضب 4/249 رقم (4782، 4783) بإسنادين إلى النبي صلى الله عليه وسلم، الأول مسند متصل، والآخر مرسل، وقال عن الآخر: "هذا أصح الحديثين".

139 - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب ما يقال عند الغضب 4/249 رقم (4784) بالإسناد المذكور، وبهذا اللفظ، وهو مرسل.

عليه وسلم: "ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" . (140)

فإن مثل هذا الأسلوب كثيرا ما يفيد في العلاج بل الوقاية من الداء.

12 - بيان الأجر الذي ينتظر المسلم حين يجاهد نفسه، ويكظم غيظه، إذ يقول سبحانه:

{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } (الشورى).

{ وَيَسَارِعُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران).

وإذ يقول صلى الله عليه وسلم: "ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى" ، (141) "من كتم غيظا، وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء" . (142) فإن من لاح له بريق الأجر هانت عليه مشقة التكليف .

13 - دوام المعاشة لكتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنها تبصر الطريق، وتربي ملكة التقوى، وهما خير ما يعين على التخلص بل الوقاية من الغضب .

14 - النظر في تاريخ من عرف عنهم كظم الغيظ والتحلي بالحلم والعفو كالأحنف بن قيس، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي وغيرهم، فإن هذا النظر يحمل على الاقتداء والتأسي أو على الأقل المحاكاة والتشبه.

140 - الحديث سبق تخريجه.

141 - الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب الزهد : باب الحلم 2/1401 رقم (4189)، وأحمد في المسند 2/128، كلاهما من حديث بن عمرو مرفوعا، وأورده البوصيري في مصباح الزجاجة 4/233 وعقب عليه بقوله: "هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس أيضا".

142 - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب من كظم غيظا 4/248 رقم (4777) من حديث سهل بن معاذ عن أبيه به مع خلاف يسير، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب في كظم الغيظ 4/326، رقم (327)، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب، وأحمد في المسند 3/438، 439، 4/14، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير 5/351 من حديث معاذ بن أنس فوعا بهذا اللفظ.

15 - الدعاء إلى الله أن يشفي القلوب مما بها من غيظ، وأن يسكب فيها الرضا، والرحمة، والشفقة على عباد الله، فإن الدعاء سهام نافذة لا تكاد تخطئ، بل هو العبادة حقا.

الآفة السادسة والعشرون الحقد

والآفة السادسة والعشرون التي قد ابتلي بها نفر من العاملين، بل لقد ابتلي بها كثيرون بالفعل، وكانت سببا فيما نشهده على الساحة اليوم من كيل الاتهامات للمجاهدين الصادقين إنما هي: "الحقد".

وحتى يتطهر منها من ابتلي بها، ويسلم منها من عافاه الله - عز وجل - منها، فإنه لابد من إعطاء تصور دقيق، وواضح عنها على النحو التالي:

أولا: تعريف الحقد:

لغة

الاحتباس والمنع، يقال: حقد المطر حقدا، وأحقد: احتبس ومنع. وقال ابن الأعرابي: حقد المعدن وأحقد: إذا لم يخرج منه شيء، وذهبت منالته، ومعدن حاقدا: إذا لم ينل شيئا، وأحقد القوم: إذا طلبوا من المعدن شيئا، فلم يجدوا، والحقود: كثير الحقد، (143) والأحقاد: التصيير إلى الحقد، نقول: أحقده الأمر، وأحقده غيره، صيره حاقدا.

والضغن لغة:

أ - الميل أو الجور نقول: ضغنوا عليه: مالوا عليه، واعتمدوا بالجور، وقال ابن الأعرابي: ضغنت إلى فلان: ملت إليه، كما يضعن البعير إلى وطنه، وإذا قيل في الناقة: هي ذات ضغن، فإنما يراد نزعها - أي الشوق إلى وطنها - وربما استعير ذلك في الإنسان.

¹⁴³ - انظر: لسان العرب 2/938، 939، وتاج العرروس للزبيدي 2/338، مادة: "حقد".

ب - الانطواء على الحقد، نقول: تضاغن القوم واضطغنوا:
انطوا على الأحقاد.

ج - الامتناع عن إعطاء كل ما في النفس لسبب ما، نقول:
فرس ضاغن، وضغن: لا يعطي كل ما عنده من الجري حتى
يضرب، وقال أبو عبيدة: فرس ضغون - الذكر والأنثى فيه سواء
- وهو الذي يجري كأنما يرجع القهقري، وفي حديث عمر:
"والرجل يكون في دابته الضغن فيقومها جهده، ويكون في
نفسه الضغن فلا يقومها"، والضغن في الدابة أن تكون عسرة
الانقياد. ولا تعارض بين هذه المعاني الثلاثة؛ إذ هو الانطواء على
الحقد، (144) المعبر عنه أحيانا بالميل أو الجور بصورة تمنع
من إعطاء كل ما في النفس.

والوغر لغة:

أ - شدة توقد الحر أو الاحتراق من الغيظ، نقول: في صدره
علي وغر - بالتسكين: ضغن، وعداوة، وتوقد من الغيظ،
والمصدر الوغر بالتحريك.
ب - الامتلاء غيظا، نقول: وغر صدره عليه، يوغر وغرا، ووغر
يغر: إذا تجرع أو امتلأ غيظا وحقدا، والتوغير: الإغراء بالحقد،
وأوغرت صدره على فلان: أوقدته، وأحميته من الغيظ.
ج - الصوت، وهو مشتق من إيغار الخراج، وهو أن يؤدي الرجل
خرجه إلى السلطان الأكبر فرارا من العمال.
ولا تعارض؛ إذ هو امتلاء القلب غيظا وحقدا، بصورة توقده
وتحرقه. (145)

والدوي لغة:

الضغن أو المرض والسل، أو هو داء باطن في الصدر يقال:
تركت فلانا دوي، ما أرى به حياة، وفي حديث أم زرع: كل داء له
داء، أي كل عيب يكون في الرجال فهو فيه، فجعلت العيب داء،

144 - انظر: لسان العرب 4/2592، 2593، وتاج اللغوس 9/264، مادة: "ضغن".

145 - انظر: لسان العرب 6/4878، 4879، وتاج اللغوس 3/604، مادة: "وغر".

وقولها: له داء: خبر لكل، ويحتمل أن يكون صفة لداء، وداء الثانية خبر لكل، أي كل داء فيه بليغ متناه، كما يقال: إن هذا الفرس فرس . (146)

والغل لغة:

الغش أو الضغن والحقد، نقول: غل صدره غلا وغليلا: كان ذا غش، أو ضغن، وحقد، (147) ومنه قوله سبحانه في التنزيل: { وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } (الأعراف: 43، الحجر: 47).

اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فإن الحقد وما في معناه من: الضغن، والوغر، والدوي والغل يعني: حبس أو إمساك العداوة والبغضاء في الصدر للعجز عن التشفي حالاً مع التربص أو التحين للتعبير عنها بصورة من الصور، أو شكل من الأشكال مالا، وعرفه الشريف الجرجاني بقوله: "الحقد: هو طلب الانتقام، وتحقيقه أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقداً" ، (148) أو هو: "سوء الظن في القلب على الخلائق لأجل العداوة" ، (149) والتعريف الأول الذي نقلناه عن الجرجاني لا يختلف كثيراً عن التعريف الذي ذكرناه، أما التعريف الثاني فإنه تعريف للحقد ببيان أثره. وقال الغزالي: "ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، وأن يدوم ذلك ويبقى" . (150)

ويعرفه الشيخ عبد الرحمن الميداني بقوله: "والحقد هو العداوة الدفينة في القلب، والعداوة هي كراهية يصاحبها رغبة بالانتقام من الشخص المكروه إلى حدِّ إفنائه وإلغائه من الوجود، ومن

146 - انظر: لسان العرب 2/1463 - 1465، مادة: "دوا" بتصرف كثير.

147 - انظر: المعجم الوسيط 2/659، 660 بتصرف كثير.

148 - انظر: التعريفات ص 91 نقلاً عن الغزالي ففي إحياء علوم الدين 3/266.

149 - انظر: التعريفات ص 91 نقلاً عن الغزالي ففي إحياء علوم الدين 3/266.

150 - انظر: إحياء علوم الدين 3/266.

مرادفات الحقد تقريبا: كلمة الغل، فالغل هو العداوة المتغلغلة في القلب، ومن مرادفاته أيضا: الضغن، والشحناء، فهي جميعا كلمات تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة، ترجع بوجه عام إلى معنى العداوة، مع بعض فروق في الدلالات" . (151)

ثانيا: صور الحقد وحقيقته في الإسلام:

- وللحقد صور تدل عليه، وأمارات يعرف بها، منها:
- 1 - تشويه صورة وسمعة البررة المجاهدين الذين وقفوا حياتهم على دين الله فعاشوا وماتوا لهذا الدين، وعلى هذا الدين، وما كان لهم من جريرة أو ذنب إلا أنهم يقولون: ربنا الله، وأن سمعتهم، ودعوتهم طارت في الخافقين.
 - 2 - الوقوف عند بعض الأخطاء التي تاب منها أصحابها، وانتشرت هذه التوبة في كل الأوساط حتى عرفها العام والخاص، والقاصي والداني، ثم إشاعة هذه الأخطاء بين الناس في كتب ومؤلفات أو أشرطة كاسيت، لتشويه صورة أصحابها، والتشويش على المنهج الذي يعتنقون، والدعوة التي لها يعملون، مثل التعليق المستمر على موقف الأستاذ سيد قطب من بعض الصحابة مع أنه تاب ورجع عن ذلك.
 - 3 - تفسير بعض المواقف التي أملتها وتمليها حكمة الدعوة إلى الله من بعض الدعاة على أنها عمالة، وجاسوسية، وعلى أن أهلها ماسونيون أو رافضة، أو كفار مبتدعون.
 - 4 - الحط على كل من لا يذعن لهم بالولاء، أو يخالفهم المذهب والمشرّب، أو كان سببا في تعريتهم، وكشف سوءاتهم على الملأ من الناس .
 - 5 - الامتناع عن الجهاد بالنفس أو المال، أو بهما معا.
- قال تعالى: {إِنَّ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْلُوا} (محمد).

151 - انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها 1/875.

يقول الماوردي: "قوله تعالى: {إِنْ يَسْأَلَكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا} فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن الإحفاء أخذ الجميع، قاله ابن زيد، وقطرب. والثاني: أنه الإلحاح وإكثار السؤال، مأخوذ من الحفاء، وهو المشي بغير حذاء، قاله ابن عيسى، الثالث: أن معنى معه {فَيُحْفِكُمْ}، أي فيجدكم تبخلوا، قاله ابن عيينة.

وقوله تعالى: {يُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ} يحتمل وجهين: أحدهما: يظهر بامتناعكم ما أضمرتموه من عدوانكم، والثاني: يظهر عند مسألتكم ما أضمرتموه من عداوتكم" . (152)
والحقد وما في معناه من الضغن، أو الوغر أو الدوي أو الغل، إن كان مصوبا نحو أهل الصلاح والتقوى فهو قبيح مذموم. دلنا على قبحه وذمه: أن الله مدح صنفا من الناس أنه كان إذا دعا ضمن دعائه سؤال ربه أن يطهر قلبه من هذا المرض فقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (الحشر).

يقول ابن كثير-رحمه الله: "وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}: هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفياء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال في آية براءة: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} وهم المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه { (التوبة: 100) فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لأثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ} أي قائلين: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

152 - انظر: النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي 4/54.

وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا { أي بغضا وحسدا } لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ { . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك - رحمه الله - من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء" . (153)

وبين الله أن من تمام منته، وفضله على أهل الجنة أنه طهر قلوبهم من الغل، فلا يبغض بعضهم بعضا، ولا يكره بعضهم بعضا، قال تعالى: { وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } (الأعراف: 43).

يقول الماوردي: "قوله عز وجل: { وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } فيه أربعة أوجه: أحدها: الأهواء والبدع، قاله سهل بن عبد الله، والثاني: التباغض والتحاسد، والثالث: الحقد، والرابع: نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم.

وفي نزع وجهان: أحدهما: أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه، والثاني: أن ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزع من صدورهم، وفي هذا الغل قولان: أحدهما: أنه غل الجاهلية، قاله الحسن، والثاني: أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان، وقد روي عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: { وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } وقيل: إنها نزلت في أهل بدر، ويحتمل قوله: { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا }

وجهين: أحدهما: هدانا لنزع الغل من صدورنا، والثاني: هدانا بثبوت الإيمان في قلوبنا حتى نزع الغل من صدورنا، وفيه وجه ثالث قال جويبر: هدانا لمجازة الصراط ودخول الجنة" . (154) وقال تعالى: { وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } (الحجر). يقول الماوردي: "قوله عز وجل: { وَتَزَعْنَا }

153 - انظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني 475//3.

154 - انظر: النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي 2/28، 29.

مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ { فِيهِ وَجْهَانُ: أَحَدُهُمَا: نَزَعْنَا بِالْإِسْلَامِ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلِّ الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، الثَّانِي: نَزَعْنَا فِي الْآخِرَةِ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلِّ الدُّنْيَا قَالَ الْحَسَنُ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ مَرْفُوعًا" . (155)

وَبَيْنَ سَبْحَانِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فَضْحِ الْمُنَافِقِينَ بِإِبْرَازِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ ضَعْفٍ وَحَقْدٍ فَقَالَ:

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَاتَهُمْ } (محمد).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } فِيهِ وَجْهَانُ: أَحَدُهُمَا: شَكٌّ، قَالَهُ مِقَاتِلُ، الثَّانِي: نِفَاقٌ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَاتَهُمْ } فِيهِ أَرْبَعَةٌ أَوْجُهُ: أَحَدُهَا: غَشَمُهُمْ، قَالَهُ السَّدِيُّ، الثَّانِي: حَصْدُهُمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، الثَّلَاثُ: حَقْدُهُمْ، قَالَهُ ابْنُ عَيْسَى، الرَّابِعُ: عَدْوَانُهُمْ، قَالَهُ قَطْرِبُ، وَأَنْشَدَ:

قُلْ لَابْنِ هِنْدٍ مَا أَرَدْتَ بِمَنْطِقِ سَاءِ الصَّدِيقِ، وَسَرَّ ذَا الْأَضْغَانِ (156)

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ غَفْرٌ لَهُ مَا سِوَاهُ لِمَنْ شَاءَ: مَنْ مَاتَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَكُنْ سَاحِرًا يَتَّبِعُ السَّحْرَةَ، وَلَمْ يَحْقُدْ عَلَى أَخِيهِ" . (157)

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ رَضِيٍّ أَنَّ اللَّهَ عَنَهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "يَطْلُعُ الْآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطَفُفٌ (158) لِحَيْتِهِ مِنْ وَضُوئِهِ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِعَلْقَةٍ بِيَدِهِ الشَّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا

155 - انظر: النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي 2/370، 371.

156 - انظر: النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي 4/52.

157 - لحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الشحاء ص 181، 182 رقم (731) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ، وفي إسناده أبو سهاب الخياط صدوق له أوهام كما في: تقريب التهذيب 1/471.

158 - تنطف: تقطر، يقال: نطف الماء ينطف: قطر.. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر 4/154.

كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو، فقال: إني لاحت أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي، فعلت، قال: نعم، قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله - عز وجل - وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر.

قال عبد الله: غير أنني لم أسمعهم يقول إلا خيرا، فلما مضت الثلاث الليالي، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب، ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنا ثلاث مرات: "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة"، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن أوي إليك فأنظر: ما عملك، فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد في نفسه لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطبق" (159) وهكذا تكشف لنا هذه النصوص عن قبح وذم الحقد، وما في معناه، لا سيما إذا كان منصبا على واحد من المسلمين أهل التقوى والصلاح.

ثالثا: أسباب الحقد:

وللحقد أسباب توقع فيه، وبواعث تؤدي إليه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

159 - لحديث أخرجه أحمد في المسند 3/166 من حديث أنس بن مالك t مرفوعا، وهذا لفظه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الأدب: باب في سلامة الصدر من الغش والحسد 8/81، 82 من حديث أنس بهذا اللفظ، وعزاه إلى أحمد والبخاري، وعقب عليه بقوله: "رجال أحمد رجال الصحيح".

1 - الحرمان:

وذلك أن الحق تبارك وتعالى قد يحرم المرء نعمة من النعم من مال، أو حرفة، أو سلطان، أو وجاهة، أو لسان، أو صحة، أو عقل وذكاء، أو زوجة وضيئة، أو ولد، أو عشيرة، أو هيبة ووقار، أو قبول ونحو ذلك، ويعطيها غيره، ويقف المرء عند هذا الحرمان ناسيا أو متناسيا أن الله عز وجل يقسم النعم على عباده تبعا لما سبق في علمه، وفي كتابه، وحسب عمل كل منهم ونواياه، حيث يقول سبحانه في نعمة كالمال مثلا: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} (الشورى).

وحيث يقول في الحديث القدسي: "إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغني، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه". (160) وحين يقف المرء عند حد هذا الحرمان ناسيا حكم الله في خلقه، يمتلئ حقا وغلا من داخله، ويظل ينتهز الفرصة للتعبير عن هذا الحقد، وذلك الغل في صورة من الصور، أو شكل من الأشكال.

2 - سوء التوزيع والتفريق في المعاملة:

وقد يكون سوء التوزيع للثروة وكذلك التفريق في المعاملة بين أفراد البيت الواحد، والعشيرة الواحدة، وبين أبناء الوطن، أو المجتمع الواحد، وكذلك الأمة الواحدة، من الأسباب التي توقع في الحقد لا سيما والتوزيع والمعاملة ما باتا يقومان الآن على أساس المواهب والطاقات والإمكانات كما كان في العصور الإسلامية الزاهرة، وإنما أصبحا يقومان على اتباع الهوى والمحاباة والمجاملة.

160 - لحديث أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ((3/278) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني) بغير إسناد.

ولعل هذا هو السر في تأكيد الإسلام على العدالة في التوزيع، والتسوية في المعاملة من مستوى الأسرة البسيطة إلى مستوى الإمارة والدولة، إذ يقول سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلِوَعْدِهِ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (النساء).

{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} (الأنعام: 152).

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة).

وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم لبشير، وقد أراد تفضيل ولده من عمرة بنت رواحة بطلب منها، على إخوانه من غيرها:

"اتقوا الله واعدلوا في أولادكم" ، (161) وفي رواية: "قاربوا بين أولادكم" . (162)

3 - الكبت والقهر:

وقد يكون الكبت والقهر وراء الوقوع في آفة الحقد؛ ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما يجيش ب صدره، وما يجول بخاطره وأضيف إلى ذلك القهر على أي صورة كان: من سب، وتجريح، إلى سخرية واستهزاء، إلى اعتقال أو تحديد للإقامة، إلى سجن وتجويع، وضرب وتخويف، ودام هذا الكبت وذلك

¹⁶¹ - جزء من حديث أخرجه البخاري في الصحيح: ككتاب الهبة: باب الإشهاد في الهبة 3/206، ومسلم في الصحيح: كتاب الهبات: باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة 3/1241 - 1244 رقم (1623)، وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في الرجل يفضل بعض ولده في النحل 3/292، 293 رقم (3542، 3544)، والترمذي في السنن: كتاب الأحكام: باب النحل والتسوية بين الولد 3/649 رقم (1367) وعقب عليه الترمذي بقوله: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن: كتاب النحل: باب اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر النعمان بن بشير في النحل 6/258 - 262 رقم (3672 - 3687)، وابن ماجه في السنن: كتاب الهبات: باب الرجل ينحل ولده 2/795 رقم (2375، 2376)، كلهم من حديث النعمان بن بشير عن أبيه مرفوعا، ولفظه كما في مسلم: أن النعمان بن بشير قال: تصدق علي أبي بعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهد على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا، قال: "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم".

¹⁶² - هذه الرواية أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الهبات: باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة 3/1244 رقم (1624) من حديث جابر مرفوعا.

القهر زمانا طويلا، فإن المرء يظل يختزن كل ذلك، في صورة
 عداوة تملأ الصدر، ويتحين الفرص والمناسبات ليعلن عما
 بداخله وهذا هو الحقد.
 ولعل هذا هو السر في دعوة الإسلام، وأمره بالشورى، وتحريم
 جلد الظهور، وسلب الناس أموالهم، والسخرية أو الاستهزاء
 بهم، إذ يتول الحق تبارك وتعالى:
 {وَيَسْأَوْزُهُمْ فِي الْأَمْرِ} (آل عمران: 159).
 {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} (الشورى: 38).
 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} (الحجرات: 11).
 وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا
 تَنَالُهُمَا شِفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلَمَ غَشُومًا، وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ،
 مَارِقٌ، مِنْهُ" ، (163) وفي رواية. "صنفان من أمتي لا تنالهما
 شفاعتي: سلطان ظلوم غشوم، وغال في الدين يشهد عليهم
 ويتبوا منهم" ، (164) "إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا،
 فإن الله - عز وجل - محسن يحب المحسنين" ، (165) "كل
 المسلم على المسلم حرام دمه وماله، وعرضه" . (166)
 ولعل ما نشهده على الساحة الإسلامية اليوم من القيام في
 وجه أصحاب السلطان في كثير من أنحاء العالم الإسلامي بل
 العربي: مرده إلى حالات الكبت والقهر المفروض على الناس،
 والتي لا أمل في زوالها، أو على الأقل التخفيف من حدتها ولو
 على المدى البعيد .

4 - عدم رعاية حقوق الأخوة الإسلامية:

¹⁶³ - الحديث بروايته أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب في أئمة الظلم والجور وأئمة الضلالة 5/238، 239 من حديث معقل بن يسار مرفوعا، وعقب عليه بقوله: "رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما منيع، قال ابن عدي: له أفراد، وأرجو أنه لا بأس به، وبقيّة رجال الأول ثقات".
¹⁶⁴ - الحديث بروايته أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب في أئمة الظلم والجور وأئمة الضلالة 5/238، 239 من حديث معقل بن يسار مرفوعا، وعقب عليه بقوله: "رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما منيع، قال ابن عدي: له أفراد، وأرجو أنه لا بأس به، وبقيّة رجال الأول ثقات".
¹⁶⁵ - الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد :: كتاب الخلافة: باب في العدل والجور 5/197 من حديث أنس مرفوعا، وعقب عليه بقوله: "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله في الثقات".
¹⁶⁶ - جزء من حديث طويل سيأتي تخريجه في الحاشية القادمة.

وقد يكون عدم رعاية حقوق الأخوة الإسلامية من: المواساة بالنفس وبالمال، ومن إظهار الفضائل والمحاسن، وإخفاء المعايب والردائل، ومن الوفاء بحق الصحبة، ومن الدعاء بظهر الغيب، ومن ترك التكلف، ونحوها، من وراء الوقوع في آفة الحقد؛ ذلك أن المسلم إذا رأى أخاه في النعمة، ولا يواسيه بنفس، أو مال، ولا يبرز فضائله ومحاسنه حين تقتضي الظروف ذلك، ولا يخفي عيبه ورذيلته، ويحاول التشهير به، ولا يفي له بحق الصحبة ويعرض عنه، ويتكلف له في اللقاء، والتوديع، والضيافة ونحوها، يتغير من داخله عليه، وبمرور الزمن يتولد لديه الكراهية والبغضاء والعداوة، ويكون الحقد. ولعل هذا هو السر في تأكيد المنهج الإلهي على رعاية حقوق الأخوة الإسلامية، إذ يقول الحق تبارك وتعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (المائدة: 54).

ويقول في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين وأنصار: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} (الفتح: 29). ويقول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الحجرات).

وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

"إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً" ، (167) وفي رواية: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات

167 - لحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب ما ينهي عن التحاسد والتدابير: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ (، 8/23، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظن والتجسس 4/1985، 1986 رقم (2563، 2564)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب، باب في الظن 4/280 رقم (4917)، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وهذا للحديث تخريج أوسع وجامع لكل الألفاظ التي روي بها في كتابنا: "غاية البيان في شرح مختارات من السنن 1/67" فليراجع من أراد.

- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه " . (168)

"مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" . (169)

5 - غرور بل تكبر الآخرين:

وقد يكون غرور بل تكبر الآخرين مما يوقع في آفة الحقد؛ ذلك أن المغرور هو المعجب بنفسه إلى حد احتقار واستصغار كل ما يصدر عن الآخرين في جنب ما يصدر عنه، والمتكبر هو ما يصنع ذلك من النيل من ذوات الآخرين، والترفع على أشخاصهم، ولا شك أن هذا مما يترك آثاره في النفوس، فإذا هي مليئة من داخلها بالعداوة والبغضاء، وما هذه العداوة، وتلك البغضاء إلا الحقد، ولعل من حرص الإسلام وتأكيده على طهارة النفوس من الغرور والتكبر إنما هو العمل على حماية الآخرين من الوقوع في هذه الآفة بدمها و التحذير منها على النحو الذي ذكرنا في علاج كل من الغرور والتكبر . (170)

6 - استغلال الآخرين:

وقد يكون استغلال الآخرين للمرء، ولا سيما في أوقات الشدائد والمحن، من الأسباب الحاملة على الحقد، فقد تنزل بالمرء شدة أو ضائقة، ويتلفت فلا يجد عوناً من الآخرين إلا إذا كانت هناك منفعة مادية بحتة، وتحت وطأة الحاجة يقبل، ولكنه

168 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب ما ينهي عن التحاسد والتدابير: **ثَابِتُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**، 8/23، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظن والتجسس 4/1985، 1986 رقم (2563، 2564)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب، باب في الظن 4/280 رقم (4917)، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وهذا للحديث تخريج أوسع وجامع لكل الألفاظ التي روي بها في كتابنا: "غاية البيان في شرح مختارات من السنن 1/67" فليراجع من أراد.

169 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب رحمة الناس والبهائم 8/12، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم 4/1999، 2000 رقم (2586)، كلاهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً.

170 - راجع هاتين الآفتين في الجزء الأول من هذا الكتاب "آفات على الطريق".

والحالة هذه لا يسلم صدره من العداوة والبغضاء بل يتحين الفرصة للانتقام، وهذا هو الحقد. ولعل هذا هو السر في مجيء النصوص الكثيرة التي تحظر على المسلم استغلال الآخرين في أي صورة من صور الاستغلال كالربا، والاحتكار، والغبن، وأكل أموال اليتامى ظلما ونحوها، إذ يقول سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة).

{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ تَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا} (النساء).

وإذ يقول صلى الله عليه وسلم: "درهم ربا يأكله الرجل - وهو يعلم - أشد عند الله من ست وثلاثين زنية"، (171) (لا تلقوا البيوع، ولا يبيع بعض على بعض، ولا يخطب أحدكم - أو أحد - على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب الأول أو يأذنه فيخطب". (172)

7 - التفريط في حق الجار:

وقد يكون التفريط في حق الجار مسلما أو غير مسلم، قريبا أو غير قريب، من الأسباب المؤدية إلى الحقد؛ ذلك أن المرء إذا رأى جاره لا يرعى حقوق الجار، وأبسط شيء في ذلك

171 - لحديث أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 3/29 رقم (1033)، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط والدارقطني في السنن، وأحمد في المسند من حديث ابن أبي مليكة عن عبد الله بن حنظلة الراهب موقوفا ومرفوعا، ثم عقب بقوله: "ثم إن الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأي كما لا يخفى".

172 - الحديث أخرجه أحمد في المسند 2/153 من حديث نافع عن ابن عباس قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيع حاضر لباد، وكان يقول: "لا تلقوا البيوع..."، الحديث، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 3/27 رقم (1030)، وعزاه إلى أحمد في المسند عن ابن عمر، وعقب عليه بقوله: "قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجه نحوه مفرقا...".

المواساة بالنفس والمال، فإنه يبغضه، ويظل هذا البغض ينمو حتى يصل إلى أن يصير حقداً.

ولعل هذا من بين الأسرار التي من أجلها دعا الإسلام إلى رعاية حق الجوارح إذ يقول الحق - تبارك وتعالى:

{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَابًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا} (النساء).

وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"، (173) "من كان يؤمن بالله

173 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب الوصاة بالجار 8/12، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب الوصية بالجار والإحسان إليه 4/2025 رقم (2624، 2625)، كلاهما من حديث ابن عمر وعائشة مرفوعاً، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب، باب في حق الجوارح 4/338، 339 رقم (5151، 5152)، ولفظ حديث ابن عمرو: أنه ذبح شاة، فقال: أهديتهم لجارى اليهودي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما زال جبريل"، وساق الحديث، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في حق الجوارح 4/293، 294 رقم (1942) من حديث عائشة مرفوعاً، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح، ورقم (1943) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بلفظ أبي داود المتقدم، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى هذا الحديث عن مجاهد، عن عائشة وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً"، وابن ماجه في السنن: كتاب الأدب، باب حق الجوارح 2/1211 رقم (3673) من حديث عائشة مرفوعاً، ورقم (3674) من حديث أبي هريرة وعقب عليه البوصيري في مصباح الزجاجة: كتاب الأدب: باب حق الجار 4/102 بقوله: "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، رواه ابن حبان في صحيحه من طرق داود بن فراهيم، عن أبي هريرة به، وله شاهد في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة، وأبي شريح، ورواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه الترمذي في الجامع من حديث عبد الله بن عمرو، وأحمد في المسند 2/85 من حديث ابن عمر مرفوعاً 2/165 من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً، 2/259 من حديث أبي هريرة، وفي رواية أخرى 2/305 أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني جبريل عليه السلام، فقال: إني كنت أتيتك الليلة، فلم يمنعني أن أدخل عليك البيت الذي أنت فيه إلا أنه كان في البيت تمثال رجل... الحديث، وفي آخره: "وما زال يوصيني بالجار حتى ظننت، أو رأيت أنه سيورثه" 2/445، 458، 514 من حديث أبي هريرة أيضاً، 5/32، 365 من حديث رجل من الأنصار قال: خرجت من أهلي أريد النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أنا به قائم، ورجل معه مقبل عليه، فظننت أن لهما حاجة، فقال الأنصاري: والله لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعلت أرثي لرسول الله من طول القيام، فلما انصرف قلت: يا رسول الله: لقد قام بك الرجل، حتى جعلت أرثي لك من طول القيام، قال: "ولقد رأيتك؟" قلت: نعم: قال: "أتدري من هو؟" قلت: لا، قال: "ذاك جبريل عليه السلام ما زال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"، ثم قال: "أما إنك لو سلمت عليه رد عليك السلام"، 6/52، 91، 125، 187، 238، من حديث عائشة مرفوعاً.

واليوم الآخر فليكرم جاره... " الحديث . (174) إلى غير ذلك من النصوص .

8 - تفكك الأسرة مع عدم سعي الأمة في علاج هذا التفكك:

وقد يكون تفكك الأسرة بسبب موت العائل أو الطلاق، والزواج بأخرى في ضوء غياب القيم، والضوابط الشرعية ومع عدم سعي الأمة، حكاما، ومحكومين في القيام بواجبها نحو علاج هذا التفكك، من بين الأسباب المؤدية إلى الحقد؛ ذلك أن الأسرة هي المحضن الأساسي في تخريج وحماية الأجيال. ويوم يطرأ على الأسرة ما يؤدي إلى تفككها على النحو الذي ذكرنا، وينساها المجتمع، فإن الأولاد يتعرضون لحرمان وتشريد ينتهي بهم إلى الحقد على كل أجناس وطبقات المجتمع.

ولعل هذا من بين الأسرار التي من أجلها أوجب الإسلام الولاية بين المؤمنين بعضهم بعضا، إذ يقول سبحانه: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} (التوبة: 71).

كما أوجب العدل عند تعدد الزوجات، وكذلك كفالة اليتامى وحذر من إهمالهم، إذ يقول سبحانه: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} (النساء: 3).

174 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره 8/13، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب الحث على إكرام الجار... إلخ 1/69 رقم (48) من حديث أبي شريح العدوي الخزاعي مرفوعا، 1/68، 69 ورقم (47) من حديث أبي هريرة مرفوعا، وابن ماجه في السنن: كتاب الأدب: باب حق الجوار 2/1211 رقم (3672) من حديث أبي شريح العدوي الخزاعي مرفوعا، والدارمي في السنن: كتاب الأطعمة: باب في الضيافة 2/98 من حديث أبي شريح الخزاعي مرفوعا، ومالك في الموطأ: كتاب صفة النبي صلى الله عليه وسلم: باب جامع ما جاء في الطعام والشراب ص 578 رقم (22) من حديث أبي شريح الكعبي مرفوعا.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالتَّيَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة).
{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ التَّيَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ
فَأَخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} (البقرة: 220).

9 - السماع للوشاة من غير تثبيت:

وقد يكون السماع للوشاة من غير تثبيت هو المسبب في الحقد
ذلك أن المرء كثيرا ما يتأثر بما يسمع، وإذا لم يكن عاقلا، وتبين
أو تثبت من كل ما يسمع، فإنه يبني على ذلك أحكاما قد يكون
من بينها العداوة والبغضاء والحقد.

وخير ما نستدل به على ذلك: ما يلقيه أعداء الله على حكام
المسلمين من أن الإسلاميين يريدون أخذ الكرسي والسلطة
منهم ويصدقهم الحكام من غير تبين أو تثبت، وتكون العاقبة
الحقد والسعي للانتقام، والتنكيل بهؤلاء.

ومن هذا الباب أيضا: ما يصنعه نفر من الجماعات الإسلامية
تجاه جماعة أخرى أكثر ظهورا وانتشارا وقبولا في الناس،
واستقامة على منهج الحق، إذ يلقون في روع خالي الذهن من
أي تصور عن هذه الجماعات أن الجماعة ذا السمات الفلاني
جماعة مبتدعة بل كافرة، ذات صلة بالاستعمار والصهيونية،
والرافضة، ويظنون يكيلون مثل هذه التهم، ولا يطالبهم
المخاطب بالدلائل الواضحات القطعية البينات، بل ربما
يأخذون عليهم العهد والميثاق ألا يتصلوا بأي واحد له انتماء لهذه
الجماعة، وألا ينظروا في فكرهم، وألا يشهدوا أي تجمع لهم،
وألا يسمعوا لأي متحدث فيهم، وتكون النتيجة العداوة والبغضاء
أو الحقد. ومن أجل هذا وغيره دعانا الله - عز وجل - إلى
التثبيت أو التبين فقال سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا
بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (الحجرات).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (النساء).

10 - القطيعة أو الهجر الطويل:

وقد تكون القطيعة أو الهجر الطويل من بين الأسباب التي تؤدي إلى الحقد؛ ذلك أنه قد يختلف المرء مع غيره لسبب أو لآخر، وربما تكون النتيجة القطيعة أو الهجر، ولا ضير في قطيعة خفيفة، أو هجر يسير ريثما تهدأ النفوس، وتكون المراجعة، وعودة المياه إلى مجاريها، لكن أن تدوم القطيعة، وأن يطول الهجران، فذلك هو الخطر بعينه؛ لأنه مع كل يوم يتعمق البغض، وترسخ البغضاء، وتكون العاقبة الوقوع في الحقد، والعياذ بالله. ولعل هذا هو سر تحريم طول القطيعة أو الهجران بين المتخاصمين، إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام". (175) "لا هجر بعد ثلاث". (176)

11 - المراء أو الجدل:

¹⁷⁵ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب الهجرة، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث 81/26، وكتاب الاستئذان: باب السلام للمعرفة وغير المعرفة 8/65، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي 4/1984 رقم (2560)، كلاهما من حديث أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً بهذا اللفظ ورقم (2561) من حديث ابن عمر بلفظ: لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام" وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب فيمن يهجر أخاه المسلم 4/278، رقم 279 (4911) من حديث أبي أيوب مرفوعاً، ورقم (4912، 4914) من حديث أبي هريرة بنحوه، ورقم (4913) من حديث عائشة: بنحوه، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في كراهية الهجر للمسلم 4/228، رقم 289 (1932) من حديث أبي أيوب مرفوعاً، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حن صحيح، وأحمد في المسند 1/176، رقم 183 من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً بلفظ: "قتال المؤمن كفر، وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام 1، 3/110، 165، 199، 209، 225 من حديث أنس مرفوعاً بنحوه، 4/20 من حديث هشام بن عامر بنحوه، 4/327، رقم 328 من حديث عائشة مرفوعاً بنحوه، 5/416، رقم 421، 422 من حديث أبي أيوب مرفوعاً.

¹⁷⁶ - هذه الرواية بهذا اللفظ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي 4/1984 رقم 27 (2562) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وقد يؤدي المراء أو الجدل إلى الوقوع في الحقد؛ ذلك أن كلا من المتجادلين أو المتمارين يكون حريصا على إفحام الآخر وغلبته، وحين ينهزم أحدهما أمام الآخر، ويكون غير قادر على الانتقام، يضر في نفسه الحقد، والعداوة، والبغضاء. وفي هذا يقول المناوي: الحقد من البلايا التي ابتلى بها المناظرون، قال الغزالي: لا يكاد المناظر ينفك عنه، إذ لا تكاد ترى مناظرا يقدر على ألا يضر حقا على من يحرك رأسه عند كلام خصمه، ويتوقف في كلامه، فلا يقابله بحسن الإصغاء، بل يضر الحقد، ويرتبه في النفس.

12 - البيئة المحيطة بالمرء:

وقد تكون البيئة التي يوجد فيها المرء قريبة كانت كالبيت، أو بعيدة كالمجتمع هي السبب في الوقوع في الحقد؛ ذلك أن المرء كثيرا ما يتأثر بالوسط الذي يعيش فيه، وإذا كان هذا الوسط مبتلى بالحقد، فإنه يعمل على توريثه للمستعدين لذلك ممن يعيشون معه، وقد رأينا كثيرين ورثوا الحقد من آبائهم أو من مجتمعهم قيادة، وجندية، كما نبهنا على ذلك غير مرة فيما سبق من آفات.

13 - الجهل بالعواقب المترتبة على الحقد:

وأخيرا قد يكون الجهل بالعواقب المترتبة على الحقد، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي - كما سنذكر هذه العواقب بعد قليل - هو السبب في الوقوع في الحقد، فإن المرء إذا جهل العواقب الضارة، والآثار المهلكة المترتبة على أمر ما، فإنه يقع في هذا الأمر، بل ربما كان نصيرا له مدافعا عنه، وهذا شأن كثير من الناس؛ ولهذا دعا الله إلى الفقه في الدين، وجعله من الجهاد فقال: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة).

وقال لنبیه صلی الله علیه وسلم: "وقل ربی زدنی علما" (طه : 114).

رابعاً: آثار الحقد:

وللحقد آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ - على العاملين:

فمن آثار الحقد على العاملين:

1 - القلق والاضطراب النفسي:

وذلك أن كراهية الناس إلى حد الحقد عليهم بغير موجب ولا مبرر مع عدم السعي في التطهر منها، تكون عاقبتها القلق والاضطراب النفسي، وكفى بذلك عقاباً؛ إذ قد ينتهي بصاحبه إلى الموت كما حكى سبحانه عن صنف من المنافقين لم يكن لهم من عملٍ إلا الحقد على المؤمنين: ملأ {إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ} (آل عمران: 120).
{قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (آل عمران).

2 - الحسد:

وذلك أن الحاقد ممتلئ عداوة وبغضا من داخله، ويحاول التنفيس عن هذا الذي بداخله، ويرى الحسد - وهو تمني زوال نعمة من يحقد عليه - ميداناً واسعاً من ميادين هذا التنفيس، فيأخذ به، والحسد مما يحبط العمل، ويبطله كما سيظهر من خلال الحديث عن هذه الآفة مستقبلاً إن شاء الله تعالى.

3 - الشماتة بالغير:

وذلك بالسرور والفرح حين تلم بالمحقود عليه مصيبة أو تنزل به كارثة، كما قال سبحانه عن المنافقين: { وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } (آل عمران: 125) والمسلم منهي عن الشماتة بالمسلمين، إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك" . (177)

4 - تضييع ما تبقى من حقوق الأخوة الإسلامية:

وذلك أنه قد مضى معنا أن من أسباب الوقوع في الحقد: عدم رعاية الأخوة الإسلامية، ويحاول الحاقد الرد على ذلك بأن يضيع هو الآخر ما تبقى من حقوق الأخوة الإسلامية، فيكون منه الهجران والقطيعة، والاحتقار والاستهزاء والسخرية، والنيل منه بما لا يحل من سوء الظن، وتتبع العورات، والغيبة والنميمة، وقد يتفاقم هذا الحقد، فيصل إلى حد الإيذاء البدني بالضرب ونحوه، ومنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة، أو نصرته في وقت يوجب النصر، وذلك كله حرام يأكل الحسنات ويؤدي إلى عذاب جهنم والعياذ بالله.

5 - الحرمان من الأجر والثواب:

وذلك أن الحاقد يخاف الوقوع في العواقب المذكورة آنفا نظرا لما يترتب عليها من الإثم والعذاب، فيجاهد نفسه ويبتعد عنها غير أنه لا يتجاوز ذلك إلى ما يوجب الفضل العظيم والثواب الجزيل من البشاشة، والرفق، والإفصاح في المجلس، وإظهار المحاسن والفضائل والتحريض على البر والمواساة بل والإيغار. يقول أبو حامد الغزالي عن آثار الحقد التي ذكرنا في إجمال:

"والحقد يثمر ثمانية أمور:
الأول: الحسد، وهو أن يحملك على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتتم بنعمة إن أصابها، وتسرب بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين، وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى.

177 - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة والرفائق والورع: باب (54) 4/571 رقم (2506) من حديث وائلة بن الأسقع مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب".

الثاني: أن تزيد على إضرار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تجهره، وتصارمه، وتنقطع عنه، وإن طلبك، وأقبل عليك.

الرابع: وهو دونه، أن تعرض عنه استصغارا له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب، وغيبة، وإفشاء سر، وهتك ستر، وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به، وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب، وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام.

وأقل درجات الحقد: أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا

تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، ولكن تستثقله في

الباطن ولا تنهي قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به

من البشاشة، والرفق، والعناية، والقيام بحاجاته، والمجالسة

معه على ذكر الله تعالى، والمعاونة على المنفعة له، أو بترك

الدعاء له، والثناء عليه، والتحريض على بره ومواساته، فهذا كله

مما ينقص درجتك في الدين، ويحول بينك وبين فضل عظيم،

وثواب جليل، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله". (178)

ب - على العمل الإسلامي:

وأما آثار الحقد على العمل الإسلامي فتتلخص في:

1 - قلة كسب الأنصار:

وذلك أن الحاقد قد أتى من المعاصي والآثام ما يوجب نفرة

الآخرين منه، بل عدم تأثرهم بما يصدر عنه، إذا لم يجدوا فيه

النموذج الذي ينبنى الاقتداء أو التأسى به، فيتولون عنه ويخسر

178 - سبق تخريجه.

العمل الإسلامي سواعد تشارك في حمل الأمانة وإبلاغها للناس، وحمائتها من كيد الكائدين، وعبث العابثين أو على الأقل تؤيد ولو بالدعاء من يحملون هذه الأمانة ويحاولوا الخروج من هذه التبعة وتلك المسؤولية. وقد جاء في الحديث: (... والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" . (179)

2 - الفرقة والتمزق:

وكذلك تكون عاقبة الحقد على العمل الإسلامي الفرقة والتمزق ذلك إذا شاع الحقد في هذا الوسط، فإنه يثمر عدم رعاية حقوق الأخوة الإسلامية، وتكون العاقبة الفرقة والتمزق الأمر الذي يفتح الطريق على أعداء الله فيمسكون بخناقنا، ويضيقون هذا الخناق حول أعناقنا يوما بعد يوم ويحرماننا الله عز وجل تأييده ونصره، فتطول الطريق وتعظم التكاليف.

خامسا: علاج الحقد:

وما دما قد عرفنا حقيقة الحقد، ومظاهره، وموقف الإسلام منه وأسبابه، وآثاره، فقد سهل علينا تحديد سبيل العلاج بل الوقاية، وتتلخص هذه السبيل في هذه الخطوات:

- 1 - اليقين التام بأن الله عز وجل عليم حكيم، يعطي العباد من النعم تبعاً لما سبق في علمه، وما اقتضته حكمته، وما فيه مصلحة للعبد، فإن هذا اليقين يحمل صاحبه على الرضا بما قسم الله وأعطى من النعمة، أعم من أن تكون هذه النعمة له، أو للآخرين.
- 2 - الحرص على العدالة في التوزيع، والتسوية في المعاملة من الأب لأولاده، ومن الأخ لإخوانه، ومن الحاكم للرعية، فإن

179 - سبق تخريجه.

- ذلك له دور كبير في اقتلاع جذور الحقد من النفس، وأن يحل محله العفو، والصفح، والإحسان.
- 3 - إعطاء الغير الحق في التعبير عما يدور بداخله، ومنع جلد الظهور، والاعتداء على الدماء، والأموال والأعراض، فإن هذا مما يساعد كذلك في تطهير النفس من الحقد، وصبغها بصبغة العفو والتسامح.
- 4 - رعاية حقوق الحقوق الإسلامية - على النحو الذي شرحنا - فإن هذا له دور كبير في القضاء على هذا الحقد، وأثاره، وأن يعيش المسلمون أعزة كرماء، وفي رفاهية ورخاء.
- 5 - التخلص من أمراض الإعجاب بالنفس، والغرور، والتكبر على النحو الذي تقدم في الجزء الأول من هذه الآفات، فإنه بالتخلص من هذه الأمراض تكون طهارة النفس من الحقد.
- 6 - التحذير بعدم استغلال الآخرين في أي صورة من الصور ببيان أن هذا الاستغلال تكون له عواقب وخيمة، ومنها الحقد، فلعل هذا التحذير يؤدي إلى تلاشي الاستغلال، وأن يحل محله الرحمة، والمواساة بل والإيثار.
- 7 - التأكيد على رعاية حقوق الجار بغض النظر عن عقيدة وجنسية هذا الجار، فإنه إذا روعيت هذه الحقوق وكانت صادقة أثمرت اقتلاع جذور العداوة والبغضاء والحقد.
- 8 - السعي لحل المشكلات الأسرية، ورعاية العدالة عند تعدد الزوجات، وكفالة اليتامى حين يموت عائلهم كفالة تحميهم من سائر العلل والأمراض الظاهرة والباطنة، فلعل هذا يسهم في اقتلاع جذور الحقد من النفس.
- 9 - التثبت من كل ما نرى، وما نسمع، فإن هذا له دور كبير في عدم الوقوع في الحقد أصلاً، ومن باب أولى التخلص منه، إن كان قد ألقى بجرانه في الصدر.
- 10 - السعي لقطع الهجران بطريق أو بأخرى، فإن هذا له دور كبير في اقتلاع بذور الحقد من النفس، قبل أن تنبت وتثمر، والقصة التالية تشرح ذلك:

"جاء عن عوف بن مالك بن الطفيل - هو ابن الحارث - وهو ابن أخي عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأُمها: أن عائشة حدثت أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها، فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله علي نذر، ألا أكلم ابن الزبير أبدا، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: والله لا أشفع فيه أبدا ولا أتحنث إلى نذري، فلما طال ذلك على ابن الزبير، كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث - وهما من بني زهرة - وقال لهما: أنشدكما بالله لما أدخلتاني على عائشة، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي، فأقبل به المسور، وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما، حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا: قالوا: كلنا؟ قالت: نعم ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير، فلما دخلوا: دخل ابن الزبير الحجاب، فاعتنق عائشة، وطفق يناشدها، ويبكي، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدها إلا ما كلمته، وقبلت منه ويقولان: إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عما قد علمت من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة، والتحريج طفقت تذكرهما، وهي تبكي، وتقول: إلي نذرت، والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك، فتبكي حتى تبل دموعها خمارها" . (180)

11 - تنقية المحيط الذي يعيش فيه المرء، قريبا كالبيت أو بعيدا كالمجتمع، من الحقد، بل تهيئة الأجواء الطاهرة النظيفة القائمة على سلامة الصدر من الأحقاد، بل المواساة والإيثار فإن ذلك له دور كبير في العلاج من الحقد، بل والتحصن ضده.

180 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب الهجرة، وقول الرسول: لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث (8/25 من حديث عوف بن مالك بن الطفيل عن عبد الله بن الزبير بهذا اللفظ.

12 - دوام العيش مع كتاب الله وسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكيف جاء الذم للغل، والبغضاء، والدغل، والضغن، ونحوها مما يصب في النهاية في إناء الحقد فإن ذلك يساعد أولاً على مجاهدة النفس والتطهر أو التخلص من الحقد، وثانياً يقوي الإيمان في النفس، بحيث تسد الطريق في وجه الحقد، فلا يدخل إلى هذه النفس مرة أخرى.

13 - محاسبة النفس أولاً بأول، وإفهامها أن الحقد على الآخرين؛ لأنهم أوتوا من النعمة ما حرمت منه يعني الاعتراض على الله وعدم الرضا بقضائه وقدره، وهذا خدش في أصل الإيمان يوجب أن يحبط العمل، وأن يحل غضب الله في الدنيا والآخرة.

14 - دوام المطالعة في التاريخ الإسلامي، والسمع والنظر فيما جاء عن السلف في علاج الحقد عند الآخرين، حيث كانوا يقابلون السيئة بالحسنة، فيقدمون لهؤلاء النفقة، والهدية، ويحسنون جوارهم، وضيافتهم، وتفقدونهم، ويشاركونهم أفراحهم ولا يؤذونهم في غياب أو حضور، ويدعون لهم بظهر الغيب وهكذا، وحسبنا هنا موقف الصديق من مسطح بن أثاثة، وكان قريباً له، وكان الصديق يتعهد بالنفقة، وحين تورط في حادثة الإفك حلف الصديق أن يمنع عنه رفته وعطاءه، فنزل القرآن يقول:

{ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ } (النور).

وحين سمع الصديق ذلك قال: بلى يا رب أحب أن تغفر لي، وعاد إلى النفقة عليه وكفر عن يمينه. (181)

181 - جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الشهادات: باب تعديل النساء بعضهن بعضاً 3/227 - 231، وكتاب المغازي: باب حديث الإفك 5/148 - 154، وكتاب التفسير: سورة النور: باب منه 6/127 - 132، ومسلم في الصحيح: كتاب التوبة: باب في حديث الإفك وقبوله توبة القاذف 4/2129 - 2137 رقم (2770)، والترمذي في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة النور 5/310 - 314 رقم (3180)، وأحمد في المسند 6/59 - 61، 194 - 197، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها وعقب الترمذي على حديثه بقوله: (هذا حديث حسن صحيح غريب) من حديث هشام بن عروة، وقد رواه يونس بن يزيد، ومعمر وغير

وهذا الفاروق عمر كان يرى عدم قسمة أراضي سواد العراق والشام ومصر ونحوها محتجا بأن مثل هذا الفتح لا يكون كل يوم، وأنه إذا قسمت هذه الأراضي بين المقاتلين لم يبق شيء لمن بعدهم، ولم يبق لبيت المال مورد ثابت، كما استند إلى آيات سورة الحشر:

{ مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (الحشر).

قائلا: "قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء، ودمه في وجهه - يعني كرامته مصونة، إذ يقال لمن يسأل الناس: أراق ماء وجهه" . (182) يقول الدكتور يوسف القرضاوي معقبا على هذه الآيات، وفقه عمر هذا:

"وقررت الآيات توزيع عائد الفيء توزيعا عادلا، لا زال غرة في جبين الإنسانية، فجعلت نصيبا فيه للجيل الحاضر من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وصودرت ملكياتهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، ومن الأنصار الذين فتحوا صدورهم،

واحد عن الزهري، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص الليثي، وعبيد الله ابن عبد الله، عن عائشة هذا الحديث أطول من حديث هشام بن عروة، وأتم."

182 - انظر: فقه الزكاة 1/406 - 410 .

ودورهم لإخوانهم المهاجرين، فأووا ونصروا، وآثروا على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، وأشركت مع هذا الجيل الذي بذل، وضحي أجيالا أخرى، عبر عنهم القرآن بقوله: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا} (الحشر: 10).

وبهذا علمتنا الآيات الكريمة: أن الأمة كلها وحدة متكاملة على اختلاف الأمكنة، وامتداد الأزمنة، وأنها - على مر العصور - حلقات متماسكة، يعمل أولها لخير آخرها، ويفرس سلفها ليجني خلفها، ثم يأتي الآخر، فيكمل ما بدأه الأول، ويفخر الأحفاد بما فعله الأجداد، ويستغفر اللاحق للسابق، ولا يلعن آخر الأمة أولها، وبهذا التوزيع العادل تفادي الإسلام خطأ الرأسمالية التي تؤثر مصلحة الجيل الحاضر، ومنفعته مغفلة - في الغالب - ما وراءه من الأجيال، كما تجنب خطأ الشيوعية التي تتطرف كثيرا إلى حد التضحية بجيل، أو أجيال قائمة في سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة.

ولهذا قال الفقيه الجليل معاذ بن جبل لأمير المؤمنين عمر - حين هم بقسمة الأرض أول الأمر على الفاتحين - : والله إذن ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها اليوم صار الربع العظيم في أيدي القوم، ثم يبیدون، فيصير إلى الرجل الواحد، والمرأة، ثم يأتي بعدهم قوم يسدون من الإسلام سدا - يعني يدافعون عنه - وهم لا يجدون شيئا، فانظر أمرا يسع أولهم، وآخرهم، قال: فصار عمر إلى قول معاذ.

ومن هنا قال عمر لبلال وغيره - ممن عارض وقف الأرض على الأمة كلها - : تريدون أن يأتي آخر الناس ليس لهم شيء" . (183) وبالجملة فإن عمر كان يرى أن بقاء هذه الأرض ملكا للأمة كلها دون قسمة لها على الأجيال الحاضرة، مما يتفق وجوهه هذا

الدعاء: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ
فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا} (الحشر: 10).

15 - التذكير الدائم بهذا الداء وخطورته على الفرد والجماعة،
وأساببه وسبيل الوقاية منه، فإن الإنسان ينسى، وعلاج النسيان
إنما يكون بالتذكير.

16 - كثرة الدعاء والتبتل والضراعة إلى الله - عز وجل - أن
يطهر القلوب من هذا الداء، وخير ما ندعوه به في هذا المقام ما
قدمنا مما علمنا الله في كتابه.

الآفة السابعة والعشرون

تنافس الدنيا

والآفة السابعة والعشرون التي يمكن أن تصيب العاملين لدين الله، بل لقد أصابت بالفعل نفرا منهم، وخلفت وراءها أثارا خطيرة وعواقب مهلكة إنما هي "تنافس الدنيا". وحتى يداوى منها من أصيب بها، ويسلم من شرها وغوائلها من عافاه الله - عز وجل - منها، فإننا سنعطي تصورا صحيحا وواضحا عنها من خلال هذه الجوانب:

أولا: تعريف تنافس الدنيا:

"تنافس الدنيا" مركب إضافي مؤلف من كلمتين هما: "تنافس" و"دنيا"، والأمر يقتضي معرفة ماهية كل منهما على حدة، كي يسهل تعريف هذا المركب "تنافس الدنيا"، ودونك ذلك:

التنافس لغة:

يأتي التنافس في اللغة على معان، منها:
أ - محبة الشيء، والرغبة فيه، وأصله من الشيء النفيس في نوعه يقال: نافست في الشيء منافسة، ونفاسة، ونفاسا، ونفس الشيء بالضم نفاسة، صار مرغوبا فيه محبوبا.
ب - الضن بالشيء أو البخل به، يقال: نفست عليه الشيء بالكسر أنفسه نفاسة: ضننت أو بخلت عليه به، وما أحب أن يصل إليه.
ج - رؤية الغير فاقد الأهلية للشيء مع حسده عليه، نقول: تنافس الشيء، وبالشيء على فلان: لم يره أهلا لهذا الشيء وحسده عليه.

د - التسابق، والتباري في الشيء من غير إلحاق الضرر به - أي بالتنافس - نقول: نافس فلان فلانا في كذا: سابقه وباراه من غير أن يلحق الضرر به، وتنافس القوم في كذا: تسابقوا فيه، وتباروا دون أن يلحق بعضهم - الضرر ببعض ، (184) ومنه قوله سبحانه:

{ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ } (المطففين).

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعا فإن رؤية الغير ليس أهلا للشيء أو للأمر قد تحمل أو تقود إلى التسابق والتباري في تحصيله رغبة فيه، ومحبة له، وضنا به على هذا الغير.

"الدنيا" لغة:

والدنيا لغة، مؤنث الأدنى، يعني: الأقرب الألسق، يقال: هو ابن عمي دنيا (منون، وغير منون) قريب لاصق النسب، ثم صارت تطلق على الحياة الحاضرة أو العاجلة التي تسبق الحياة الغائبة أو الآجلة، وسميت بذلك لدنوها، أي لقربها منا، إذ يقال: دنا من الشيء دناوة، فهو دان: قرب، أو لخستها، وحقارتها، إذا طلبت لذاتها، يقال: هذا دنيء: خسيس دون، أو لنقص وقصر عمرها في جنب عمر الآخرة، نقول: أعطى الدنيا في دينه: النقيصة . (185)

"تنافس الدنيا" لغة:

وإذ عرفنا معنى كل من: "التنافس" و"الدنيا" على حدة، ونقول: إن "تنافس الدنيا" لغة: رؤية الغير أنه ليس أهلا للدنيا بصورة تحمل على التسابق والتباري في تحصيلها، رغبة فيها، ومحبة لها، وضنا بها على هذا الغير.

"تنافس الدنيا" اصطلاحا:

184 - انظر: لسان العرب 6/238، ومختار الصحاح ص 451، 452، والمعجم الوسيط 2/940، مادة: نفس"، وانظر كذلك: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي 5/427، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني 11/245 بتصرف كثير.

185 - انظر: لسان العرب 14/271 - 275، والمعجم الوسيط 1/298، 299 بتصرف كثير .

أما "تنافس الدنيا" اصطلاحاً فهو- كما يقول الإمام النووي - رحمه الله :-
"التباري في الرغبة في الدنيا، وأسبابها وحظوظها" ، (186)
ولعله يريد: "على وجه الانفراد، والاستثثار بها" على نحو ما جاء
لغة، وواضح من هذا التعريف أنه لا يختلف كثيراً عن المعنى
اللغوي.

ثانياً: بعض مظاهر تنافس الدنيا وموقف الإسلام من هذا التنافس:

- وهناك مظاهر وسمات تدل على تنافس الدنيا، وأهم هذه المظاهر وتلك السمات:
- 1 - إهمال أو إهدار الورع في المطاعم، والمشارب، والملابس، والمراكب ونحوها.
 - 2 - بغض طلاب الآخرة، والنيل منهم، بل والتظاهر والتحريف عليهم بوسيلة أو بأخرى.
 - 3 - بغض أو معاداة كل من يسبقه في الدنيا، ولا يستطيع اللحاق به.
 - 4 - ازدراء نعمة الله وعدم الرضى بها وبقضاء الله وقدره.
 - 5 - المخاصمة المستمرة على الدنيا وما فيها من متاع أو عرض زائل.
 - 6 - التشنت الدائم مع كثرة الهموم والأحزان، ولا سيما عند فوات شيء من الدنيا.
 - 7 - الاشتغال الدائم بالسعي في طلب الدنيا مع نسيان الآخرة بالمرّة أو مع تذكرها، ولكن بتهاون وفتور.
 - 8 - الحديث الدائم عن الدنيا، وزخارفها، وزيناتها، وسبل اقتناصها... وهلم جرا.

¹⁸⁶ - انظر: المنهاج للنووي 5/427، وعنه نقل ابن حجر في فتح الباري 11/245.

وتنافس الدنيا للدنيا مع نسيان أو إهمال الآخرة قبيح مذموم،
كما شهدت بذلك نصوص الكتاب والسنة.

أما نصوص الكتاب فقوله تعالى:

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (الملك).

{ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } (المطففين).

{ لِيُمِثِلَ اللَّهُ هَذَا قَلِيلًا مِمَّا كَثُرَ } (الصفوات).

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (الجمعة).

{ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ

وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } (آل عمران).

{ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } (الحديد).

إن هذه النصوص حين تتحدث عن الآخرة، تدعو صراحة إلى المنافسة والمصارعة، والمسابقة، والسعي، وحين تتحدث عن الدنيا تدعو صراحة إلى المشي الهويناء، والانتشار في الأرض، وعدم التكالب أو التنافس في طلب هذه الدنيا.

ومن نصوص الكتاب - كذلك - قوله سبحانه:

{ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ } (الحجر: 88).

{ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } (طه).

يقول ابن كثير-رحمه الله: "يقول تعالى لنبية محمد صلى الله عليه وسلم لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم، ونظراؤهم فيه من النعيم، وإنما هي زهرة زائلة، ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور" . (187)

وأما نصوص السنة النبوية فقوله صلى الله عليه وسلم: "فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتكم" ، (188)

"إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أأنتم؟"، قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله ، (189) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض" ، (190)

"إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه من المال، والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه" ، (191) "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله" . (192)

187 - انظر: مختصر تفسير ابن كثير 2/499.

188 - (نقول كما أمرنا الله) أي نحمده، ونشكره، ونسأله المزيد من فضله، انظر: تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم 4/2274 نقلا عن المنهاج للنووي.

189 - (نقول كما أمرنا الله) أي نحمده، ونشكره، ونسأله المزيد من فضله، انظر: تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم 4/2274 نقلا عن المنهاج للنووي.

190 - (فتجعلون بعضهم على رقاب بعض) أي فتجعلون بعضهم أمراء على بعض انظر: تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم 4/2275 نقلا عن المنهاج للنووي، والحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه 4/2274، رقم 2275، وابن ماجه في السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال 2/1324 رقم (3996) كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا واللفظ لمسلم.

191 - الحديث بروايته أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه 4/2275 رقم (2963)، والترمذي في السنن: كتاب اللباس: باب ما جاء في ترقيع الثوب 4/215، رقم (1785)، وكتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب (58) 4/574 رقم (2513) وعقب الترمذي على إحدى هاتين الروايتين بقوله: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب القناعة 2/1387 رقم (4142)، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ لمسلم.

192 - الحديث بروايته أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه 4/2275 رقم (2963)، والترمذي في السنن: كتاب اللباس: باب ما جاء في ترقيع الثوب 4/215، رقم (1785)، وكتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب (58) 4/574 رقم (2513) وعقب الترمذي على إحدى هاتين الروايتين بقوله: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب القناعة 2/1387 رقم (4142)، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ لمسلم.

وعن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلواته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: "إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها" . (193)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا"، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: "بركات الأرض...". الحديث . (194)

وعن الحسن أنه قال: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فالفها في نحره" ، (195) "والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا، أو ذهبت إلى ذا" . (196)

أما إذا كان التنافس في الدنيا من أجل إحراز سبق أو كفاية يستغني بها المسلمون، كابتكار علمي، أو سبق اقتصادي، ولا يبقون عالية على أعدائهم، مع نية التقرب بذلك إلى الله، والطمع في جنته ورضوانه، ومع الاهتمام بكل أعمال الآخرة الأخرى والمتمثلة في النزول على حكم الله - عز وجل - في كل

193 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب الصلاة على الشهيد 2/114، 115، وكتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام 4/240، وكتاب المغازي: باب غزوة أحد، وباب أحد جبل يحبنا 5/120، 132، وكتاب الرقاق: باب في الحوض 8/151، ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته 4/1795، 1796 رقم (2296)، وأحمد في المسند 4/149، كلهم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

194 - جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتامى 2/149، 150، وكتاب الجهاد: باب فضل النفقة في سبيل الله 4/32، ومسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا 2/727-729 رقم (1052)، والنسائي في السنن: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتيم 5/90، 91 رقم (2581)، والكبرى: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتيم 2/48 رقم (2362)، وابن ماجه في السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال 2/1323 رقم (3995)، وأحمد في المسند 3/7، 21، 91، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً واللفظ للبخاري.

195 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/304، 307.

196 - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/304، 307.

ما يأتي المرء وما يدع، فذلك حسن ومحمود ؛ لأنه لا يخرج عن أن يكون من عمل الآخرة. وقد أمرنا الله - عز وجل - أن تكون الدنيا التي في أيدينا موجهة نحو عمل الآخرة، وذلك في قوله سبحانه : { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ تَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } (القصص: 77).

ثالثا: أسباب تنافس الدنيا:

ولتنافس الدنيا أسباب توقع فيه، وبواعث تؤدي إليه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

1 - الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير:

فقد تكون الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير من الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا ؛ ذلك أن الله - عز وجل - قدر ألا حظ كل واحد من هذه الدنيا، كما قال سبحانه: { تَخُنُّ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا } (الزخرف: 32). يقول العلامة ابن جرير الطبري - رحمه الله: "وقوله: { تَخُنُّ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يقول تعالى ذكره: بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من شئنا رسولا، ومن أردنا صديقا، ونتخذ من أردنا خليلا، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة، بل جعلنا هذا غنيا، وهذا فقيرا، وهذا ملكا، وهذا مملوكا، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ونحنو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك، حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: قال الله تبارك وتعالى: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } (الزخرف: 32):

فتلقاه ضعيف الحيلة، عبي اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة، سليط اللسان وهو مقتور عليه" . (197)

بل أبرز ذلك للملك الذي يتولى نفخ الروح في كل إنسان بإذنه سبحانه حيث يؤمر: أن يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيا أم سعيدا. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيا أم سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" . (198)

ومهما تبارى الناس، وتسابقوا فلن يغيروا شيئا مما قضى الله وقدر كما قال سبحانه:

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ }
(الإسراء: 18).

يقول ابن كثير-رحمه الله: "يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله،

197 - انظر: جامع البيان 24/11/41، وعنه نقل السيوطي في الدر المنثور 7/375 مع تقديم وتأخير.
198 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب ذكر الملائكة 4/135، وكتاب الأنبياء: باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته وقول الله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } 49/161، وكتاب القدر: باب منه 8/152، وكتاب التوحيد: باب قوله تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } 9/165، 166، ومسلم في الصحيح: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه 4/2036، 2037 رقم (2643)، وأبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في القدر 4/228 رقم (4708)، والترمذي في السنن كتاب القدر: باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم 4/388، 389 رقم (2137)، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب التفسير: باب قوله تعالى: { فمنهم شقي ومنهم سعيد } 6/366 رقم (11246)، وابن ماجه في السنن: المقدمة: باب في القدر 1/29 رقم (76)، وأحمد في المسند 1/382، 414، 430، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخاري.

وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} (199).
 ومن ينسى ما قدمنا من أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير يتلى لا محالة بداء التنافس في الدنيا.

2 - الغفلة عن حقيقة الدنيا:

وقد تكون الغفلة عن حقيقة الدنيا هي السبب في الوقوع في آفة تنافس هذه الدنيا؛ ذلك أن الله خلق الحياة الدنيا لتكون معبرا أو قنطرة يمر الناس من فوقها إلى الدار الآخرة، ولكنه سبحانه جعلها بما فيها من زخارف وزينات، وشهوات دار امتحان وابتلاء، من ركن إليها ونسي آخرته فقد ضيع نفسه، إذ ركن إلى حقير قصير، ومن انتبه إليها وأخذ منها بالقدر الذي يسلمه من شرها، ويوصله إلى آخرته سلم، ونجا، بل غنم.

فقال سبحانه:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران)

{الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} (الكهف).

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ} (الملك).

{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} (النساء).

{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} (التوبة).

{ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَا وَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ } (يونس).

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ
فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (هود).

{ وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } (طه).

{ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (القصص).

{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }
(القصص: 77).

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } (فاطر:
5) إلى غير ذلك من الآيات.

تلك هي حقيقة الحياة الدنيا، ومن غفل عن هذه الحقيقة، ركن
إلى الحياة الدنيا وحرص عليها، وحمله هذا الركون وذلك
الحرص إلى تنافس الدنيا.

3 - العيش في وسط حريص يتنافس الدنيا:

وقد يكون الوسط الذي يعيش فيه المرء: قريبا - وهو البيت - أو
بعيدا - وهو المجتمع - من بين أسباب تنافس الدنيا؛ ذلك أن
المرء إذا وجد في وسط شغله الشاغل التسابق والتباري في
حيازة الدنيا، ولم تكن لديه الحصانة الكافية التي تحميه من الأثر
بهذا الوسط، فإنه يبتلى - لا محالة - بتنافس الدنيا.

يقول الغزالي في التحذير من صحبة الحريص على الدنيا
المتنافس فيها: "وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛
لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتراء، بل الطبع يسرق من
الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا
تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره

صحة طلاب الدنيا، ويستحب صحة الراغبين في الآخرة".
(200)

4 - حب الدنيا:

وقد يكون حب الدنيا من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا ؛ ذلك أن حب الدنيا إذا تمكن من القلوب حمل على التباري والتسابق فيها من غير شبع أبدا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب". (201)

5 - إقبال الدنيا:

وقد يكون إقبال الدنيا من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس هذه الدنيا. ذلك أن الدنيا إذا أقبلت، وغابت معايير وضوابط تعاطي هذه الدنيا تبارى الناس فيها، وتنافسوها خشية أن تضع أو تنتهي كما يتصورون.

ولقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا السبب حين قال في الحديث الذي ذكرناه آنفا: "... فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم"، (202) "أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة

200 - انظر: إحياء علوم الدين 2/251.

201 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب ما يتقى من فتنة المال 8/115 من حديث ابن عباس، وابن الزبير، وأنس بن مالك مرفوعا، ومسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب لو أن لابن آدم واديين لابتنى ثالثا 2/725، 726 رقم (1048-1050) من حديث أنس بن مالك، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري مرفوعا، والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب لو كان لابن آدم واديان من مال 2/318، 319 من حديث أنس بن مالك مرفوعا، وأحمد في المسند 3/341، 347؛ من حديث أنس ابن مالك بمثله، ومن حديث جابر بن عبد الله بنحوه، 5/117 من حديث ابن عباس، 131، 132 من حديث أبي بن كعب، 219 من حديث أبي واقد الليثي.

202 - الحديث سبق تخريجه.

الدنيا"، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: "بركات الأرض... "الحديث . (203)

6 - الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير حق :

وقد يكون الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس هذه الدنيا؛ ذلك أن المستعلي والمتكبر في الأرض بغير الحق تسوّل له نفسه الأمانة بالسوء، بإغراء من شياطين الجن والإنس، أنه لن يحتفظ لهذه النفس بما حصّلته من علو وتكبر، ومنزلة لنفوس الآخرين إلا بأن يكون صاحب النصيب الأوفى، والحظ الوافر من هذه الدنيا، وهذا بدوره يحمله على التسابق والتباري في طلب هذه الدنيا وهذا هو تنافس الدنيا.

7 - طول الأمل:

وقد يكون طول الأمل من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا؛ ذلك أن من يطول أمله في الدنيا يحرص على أن يجمع من هذه الدنيا ما يغطي هذا الأمل، ولا يتأتى له ذلك إلا بالتسابق والتباري في طلب الدنيا، يعني: التنافس فيها، ولعل هذا هو سر التحذير من الاسترسال في طول الأمل؛ إذ يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا مربعا، وخط خطا في الوسط خارجا منه، وخط خططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: "هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به - أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج: أمله، وهذه الخطط الصّغار: الأغراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا" . (204)

203 - الحديث سبق تخريجه.

204 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب في الأمل وطوله 8/110، 111، والترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب (22) 4/635، 636 رقم (2454) وعقب الترمذي على رواية قائلا: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب الأمل والأجل 2/1414 رقم (4231)،

وعن أنس رفعه: "أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب وطول الأمل، والحرص على الدنيا". (205)
 قال ابن حجر: "ويتولد من طول الأمل: الكسل عن الطاعة، والتسوية بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب". (206)

8 - الغفلة عن الموت والدار الآخرة :

وقد تكون الغفلة عن الموت والدار الآخرة من أسباب الوقوع في تنافس الدنيا؛ ذلك أن من بقي متذكراً أنه مهما طال به الأجل، وامتد به العمر، فإنه ميت لا محالة، وأنه راحل عن هذه الدار إلى الدار الآخرة حيث يلقي ربه، ويسأل عن كل شيء، حتى عن النقيير، والقطمير، بل وعن المكحل لم وضعه في

عينيه، والذر لم فتنه. يقول تعالى: { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } (السجدة).
 { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } (المؤمنون).

{ قَوْرَبِّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (الحجر).
 { ثُمَّ لِنُسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } (التكاثر).

ويقول صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ، إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن فتات الطين في أصبعه، فلا ألفينك يوم القيامة، وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله

والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب في الأمل والأجل 2/304، وأحمد في المسند 1/385، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

205 - الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب في جمود العين وقسوة القلب 10/229 وقال: "رواه البزار، وفيه هائئ بن المتوكل وهو ضعيف".

206 - الحديث أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم 2/559 من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً به، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

منك" ، (207) " ما فوق الإزار، وظل الحائط، وخبز يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يسأل عنه" . (208)

وقال الصحابة يوما لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: "هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟" قالوا: لا، قال: "فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟" قالوا: لا، قال: "فوالذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما"، قال: "فيلقى العبد، فيقول: أي فل - يعني: يا فلان - ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟" ، (209)

فيقول: بلى" ، قال: "فيقول: أفضنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقي الثاني فيقول: أي فل، ألم أكرمك وأسوّدك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع؟ فيقول: بلى أي ربي، فيقول: أفضنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقي الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب أمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت وتصدقت، وبتني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذا"، قال: " ثم يقال له: الآن نبعث شاهدا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه، ولحمه، وعظامه: انطقي، فتتطق فخذه، ولحمه، وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه" . (210)

207 - الحديث أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم 2/559 من حديث معاذ بن جبل مرفوعا به، وعزاه إلى ابن أبي جاتم.

208 - الحديث أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم 4/547 من حديث ابن عباس مرفوعا، وعزاه إلى أبي بكر البزار، وأنه - أي البزار - عقب عليه قائلا: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد.

209 - تربيع، يعني تأخذ ربع الغنيمة، يقال: ربعت القوم أربعهم: إذا أخذت ربع أموالهم، يريد الحق سبحانه: ألم أجعلك رئيسا مطاعا لأن الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر 2/60.

210 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزهد والرقائق 4/2279، 2280 رقم (2968)، والترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب (6) 4/534، 535 رقم (2428) وعقب الترمذي عليه بقوله: "هذا حديث صحيح غريب"، وأحمد في المسند 2/492 كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم.

من بقي متذكرا هذه الحقيقة فإنه يضع الدنيا في يديه، وتحت قدميه، ولا يبالي أقبلت أو أدبرت. أما من نسي هذه الحقيقة فإنه يقيم للدنيا وزنا، ويعمل لها حسابا ويبدل قصارى جهده في تحصيلها ولو كان بالتسابق والتباري فيها، ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى دوام ذكر الموت والاستعداد للدار الآخرة قائلا: " أكثروا ذكر هاذم اللذات - يعني الموت " ، (211) " الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله " . (212)

9 - الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا :

وأخيرا قد تكون الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا دنيوية أو أخروية، فردية أو جماعية، هي السبب في الوقوع في هذا التنافس، انطلاقا من مبدأ: أن من غفل عن الآثار الضارة المترتبة على أمر ما، ولم تكن لديه الحصانة الكافية التي تحميه من الوقوع في هذا الأمر: فإنه يقع فيه لا محالة، ومن هنا كانت الدعوة إلى الفقه في الدين على النحو الذي قدمنا غير مرة فيما مضى من آفات.

رابعا: آثار تنافس الدنيا:

211 - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء في ذكر الموت 4/479 رقم (2307) وعقب الترمذي عليه بقوله: " هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي هريرة مرفوعا بهذا اللفظ، كما أخرجه على أنه جزء حديث طويل في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب (26) 4/551 رقم (2460) وعقب عليه الترمذي بقوله: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلاه فرأى أناسا يكتشرون (يعني: تظهر أسنانهم من الضحك)، قال: " أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى، الموت، فأكثروا من ذكر هاذم اللذات، الموت... " الحديث، والنسائي في السنن: كتاب الجنائز: باب ذكر الموت 4/4 رقم (1824) والكبرى: كتاب الجنائز وتمني الموت: باب كثرة ذكر الموت 1/605، 601 رقم (1950) من حديث أبي هريرة مرفوعا، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له 2/1422 رقم (4258) من حديث أبي هريرة مرفوعا، وأحمد في المسند 2/292، 293 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، وقوله " هادم اللذات " بالذال المعجمة بمعنى قاطعها، أو بالمهملة من هدم البناء، والمراد الموت، وهو هادم اللذات، إما لأن ذكره يُزهده فيها، أو لأنه إذا جاء ما يُبقي من لذائذ الدنيا شيئا، والله تعالى أعلم، قاله الحافظ السيوطي في زهر الرُّبِّي 4/4 بهامش المجتبى.

212 - انظر: تهذيب تاريخ دمشق للشيخ عبد القادر بن بدران 6/220، 221.

ولتنافس الدنيا آثار ضارة، وعواقب مهلكة دنيوية وأخروية سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامي . ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ - على العاملين :

فمن آثار تنافس الدنيا :

1 - القلق والاضطراب النفسي :

وذلك أن من سيطرت عليه الدنيا، وابتلى بجمعها، والتنافس فيها فيصاب لا محالة بالقلق والاضطراب النفسي، خوفا من أن تضع عليه هذه الدنيا، بل خوفا من ألا يحصل الكثير منها، ويحق فيه قول الحق - تبارك وتعالى:

{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا } (طه: 124).
{ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا } (الجن).

2 - إهدار حقوق الأخوة الإسلامية :

ذلك أن تنافس الدنيا سيجر صاحبه حتما إلى الظنون الكاذبة وما تؤدي إليه من تتبع للعورات، والغيبة، والنميمة، والسخرية والاستهزاء والمزايدة على أخيه المسلم في بيع أو شراء أو نكاح، بل ربما تصل الأمور إلى حد الكيد والتأمر، وانتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وسلب الأموال لئلا يسبق في تحصيل الدنيا، وهذا شر.

3 - الانصراف عن أعمال الآخرة:

ذلك أن من جعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، وسعي إلى سبق ومجاراة الآخرين في تحصيلها ينصرف لا محالة عن أعمال الآخرة، وربما لا يجد من الأوقات والتفكير ما يعينه على إتيان هذه الأعمال.

4 - كراهية الموت والدار الآخرة :

ومن انصرف عن أعمال الآخرة، واشتغل بالدنيا، وبالتسابق والتباري في تحصيلها يكره الموت والدار الآخرة؛ لأنهما يقطعانه عما هو مشتغل متعلق، متلذذ به، فضلا عن أنه لم يقدم شيئا يسعى إليه في الآخرة.

ولعل هذا هو ما فقهه ذلك العالم الجليل أبو حازم الأعرج وقد سأله سليمان بن عبد الملك قائلا: يا أبا حازم، ما لنا نكره - الموت ؟ فأجاب : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فكرهتم الانتقال من العمران إلى الخراب . (213)

ب - على العمل الإسلامي :

وأما آثار تنافس الدنيا على العمل الإسلامي فأهمها:

1 - الفرقة والتمزق:

ذلك أن التنافس على الدنيا يؤدي إلى الخصومات، وهي بدورها تؤدي إلى العداوة، والكراهية، والبغضاء، وحينئذ لا يكون وحدة ولا اجتماع ولا ترابط، وهذه هي قاصمة الظهر حقا.

2 - طول الطريق مع كثرة التكاليف:

ذلك أنه حين ينتهي الأمر بالعمل لدين الله إلى حد الفرقة، تفسح الطريق أمام العدو فيمتطي الظهور، ويطوق الأعناق، ويشدد الخناق، فتعظم التكاليف، وتطول الطريق، وينتفش الباطل، وينتشي، ويعود من جديد لبذر بذور الشر والفساد. ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى كل هذه الآثار سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي، ولكن في إجمال حين قال: "... فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما

213 - الحديث سبق تخريجه.

تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم" ، (214) " أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا... " الحديث . (215)

خامسا: علاج تنافس الدنيا:

وإذ قد فرغنا من تعريف تنافس الدنيا، وتحديد مظاهره وموقف الإسلام منه، والأسباب المؤدية إليه، والآثار المترتبة عليه، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي، فإن من السهل بعون الله وتوفيقه رسم طريق العلاج، وتتلخص هذه الطريق في:

1 - اليقين التام بأن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير، وأنه مهما أتعب المرء نفسه، وتكالب على الدنيا، وتبارى مع الآخرين في تحصيلها أو نيل حظ منها، فإنه لن يصل إلى شيء فوق ما قسم الله، إذ قد يقود اليقين صاحبه إن كان صادقا أن يمشي الهوينا، وأن يأخذ بالأسباب البشرية فقط، ويدع ما قسم الله له، والله سبحانه لا يضيع أجر المحسنين.

2 - والبصيرة التامة بحقيقة الدنيا، وأنها ليست غاية أو هدفا، وإنما هي وسيلة لغاية وهدف، وعليه فلا يصح أن يقف عندها طويلا أو يركن إليها، ويسابق الآخرين في جمعها وتحصيلها.

3 - وأن ينزع المسلم نفسه أو أن ينتزعه الآخرون من الوسط الحريص على الدنيا المتنافس فيها، ثم يلقي بنفسه في وسط من يريدون الله ورسوله، والدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، فلعل ذلك يسهم في اقتلاع الدنيا من القلوب ويجعلها في الأيدي، وبذلك يقضي على سبب وليس من أسباب تنافس الدنيا.

4 - وأن يوقن أن المرء مهما حصَّل من الدنيا فلن يشبع أبدا، إذ لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف

214 - الحديث سبق تخريجه.

215 - الأثر سبق تخريجه.

ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح.

5 - وأن يعدل من نظرته إلى إقبال الدنيا بحيث لا يراها مجالا للتنافس، وإنما يراها فتنة يخاف على نفسه منها كما قال سبحانه :

{ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } (الأنبياء).
{ فَلَمَّا تَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } (الأنعام).

6 - وأن يداوي المرء نفسه من آفات الإعجاب بالنفس، والغرور والتكبر، فيقضي بذلك على باب كبير يمكن أن يؤدي إلى التسابق والتباري في تحصيل الدنيا.

7 - وأن يخفف من طول الأمل ما استطاع ذلك سبيلا، واضعا في حسابه أن طول الأمل لا يليق بعبد ضعيف جاهل لا يدري متى الرحيل عن هذه الدار، ولا ما يكون بعد هذا الرحيل.

8 - وأن ينعم النظر في كتاب الله وسيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ليرى ماهية وحقيقة الدنيا في جنب ماهية وحقيقة الدار الآخرة، ولعل هذه الرؤية تولد لديه قناعة ويقينا أن الدنيا أقل وأحق من أن يتكالب الناس عليها، ويتنافسوها .

9 - دوام تذكر الموت والدار الآخرة، وحاله عند سكرات الموت، وعند دخوله قبره، وقد انقطع عنه كل شيء، وأوله هذه الدنيا، تلك التي أفنى عمره في طلبها، والتكالب عليها، والتنافس فيها، ثم حاله عند السؤال، وما يكون بعده من نعيم وراحة، أو شقوة وتعب، وحاله عند البعث والنشور، والحشر والعرض على الله، إلى غير ذلك مما يكون يوم القيامة حتى يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ولعل تذكر ذلك يخوفه من داخله، ويحمله على أن يخرج حب الدنيا من القلب، ويجعلها في اليد، وينسيه التسابق والتباري في طلبها وحيازتها.

10 - طول النظر في سيرة سلف هذه الأمة، وكيف كان توأصيهم فيما بينهم، وأخذهم أنفسهم بمنهج: أن الدنيا أقل وأحق من أن يفنوا أعمارهم في طلبها والتنافس فيها لذاتها مستخدمين معها قول الله - عز وجل:

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ تَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} (القصص: 77).

هذا الحسن يقول: "من نأفك في دينك فنافسه، ومن نأفسك في دنياك فألقها في نحره". (216)

وهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، يقدم عليه أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج، فيعرفه عمر، وأبو حازم لا يعرفه، فيقول له عمر: ادن مني يا أبا حازم، وحين يدنوا منه يعرفه، فيقول له: أنت أمير المؤمنين؟ فيقول عمر: نعم، فيقول: ألم تكن بالمدينة بالأمس أميرا؟ قال: نعم، قلت: كان مركبك وطيبا، وثوبك نقيا، ووجهك بهيا، وطعامك شهيا، وحرسك كثيرا، فما الذي غير ما بك، وأنت أمير المؤمنين؟ فبكى، ثم قال: يا أبا حازم، كيف لو رأيتني بعد ثلاثة في قبري، قد سألت حدقتي على وجنتي، وانشق بطني، وجرت الديدان في بدني، لكنت أشد إنكارا لي من يومك هذا، أعد علي الحديث الذي حدثتني بالمدينة، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن بين أيديكم عقبة كؤودا مخرسة، لن يجوزها إلا كل ضامر مهزول"، فبكى، ثم قال: تلومني يا أبا حازم أن أضمر نفسي لتلك العقبة، لعلي أنجو منها، ما أظنني بناج منها. (217)

وقال أبو حازم هذا:

"نعمة الله فيما زوي عني من الدنيا أفضل من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيت أعطائها قوما فهلكوا"، " رأيت الدنيا شيئين: شيئا منها هو لي فلن أعجله قبل أجله، ولو طلبته بقوة

216 - الأثر سبق تخريجه.
217 أسماهم: جمع سمل وهو: الخلق من الثياب.. انظر: النهاية في شرح غريب الحديث والأثر 2/183.

السموات والأرض، وشيئا منها هو لغيري، فذاك ما لم أنله فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لغيري مني، كما يمنع الذي لي من غيري، ففي أيّ هذين أفني عمري؟"، "الناس عاملان: عامل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلف الفقر، ويأمنه على نفسه، فيفني عمره في بغيه غيره، وعامل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل، فأصبح ملكا عند الله، لا يسأل الله شيئا فيمنعه".

ومن قبل كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسعد عندما فتح الله عليه: أما بعد، فأعرض عن زهرة ما أنت فيه حتى تلقى الماضين الذين دفنوا في أسماهم، (218) لاصقة بطونهم بظهورهم، ليس بينهم وبين الله حجاب، لم تفتنهم الدنيا، ولم يفتنوا بها، أرغبوا فطلبوا، فما لبثوا أن لحقوا، فإذا كانت الدنيا تبلغ من مثلك هذا في كبر سنك، ورسوخ علمك، وحضور أجلك، فمن يلزم الحدث في سنه، الجاهل بعلمه، المأفون (219) في رأيه، المدخول في عقله، إنا لله وإنا إليه راجعون" . (220) إلى غير ذلك من أخبار هؤلاء في هذا الباب.

ولعل طول هذا النظر يولد في النفس معنى الاقتداء والتأسي أو على الأقل المحاكاة والتشبه.

11 - دوام التذكير والتبصير بالدنيا، والتنافس فيها، فإن الإنسان كثيرا ما ينسى وعلاج هذا النسيان، إنما يكون بالتذكير والتبصير، ولهذا يقول الحق - تبارك وتعالى: { وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } (الذاريات)، { فَذَكَرْ إِنْ تَفَعَّتْ الدُّكْرَى } (الأعلى).

12 - دوام مراقبة الله في الدخول والخروج، في السر والعلانية، في كل الظروف وفي سائر الأحيان، فإنها إن كانت صاقة تحجز عن كل شر، وتدفع إلى كل خير، ثم يكون مع

218 - المأفون: ناقص العقل، يقال: رجل أفين، وومأفون: ناقص العقل. انظرة النهاية في غريب الحديث

1/36

219 - انظر هذه الأخبار في تهذيب تاريخ دمشق 66/226، 227.

220 - انظر هذه الأخبار في تهذيب تاريخ دمشق 66/226، 227.

المراقبة، المشاركة، والمحاسبة، وتصحيح الخطأ بالإجابة
والتوبة النصوح، ولعل هذه الخطوات بمرور الزمن، مع الجدية
وأخذ الأمر بحزم وقوة، تفيد في القضاء أو على الأقل التخفيف
من تنافس الدنيا.

الآفة الثامنة والعشرون الاحتقار أو الانهزام النفسي

والآفة الثامنة والعشرون التي يتلى بها كثير من المسلمين، وكانت من بين أسباب كثير ما نعاني نحن المسلمين اليوم، إنما هي: "الاحتقار أو الانهزام النفسي". وحتى يبرأ من هذه الآفة من ابتلى بها، ويبقى صحيحاً معافى من سلمه الله - عز وجل - منها، فإننا سنتناولها من خلال هذه الجوانب:

أولاً: تعريف الاحتقار أو الانهزام النفسي

الاحتقار لغة:

والاحتقار لغة: الإذلال، والإهانة، والتصاغر، يقال: احتقره، حَقَرَه وَحَقَّرَ الشيء حَقراً، وحقارة، فهو حقير: ذل، وهان، وصغر. (221)

وفي الحديث: "إياكم ومحقرات الذنوب" (222) : صغائر، واحدها: محقرة.

²²¹ - انظر: لسان العرب لابن منظور 4/207، 2088، والمعجم الوسيط 1/187، مادة: "حقر" يتصرف.
²²² - زء من حديث أخرجه أحمد في المسند 1/4522، 403 من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم في أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها"، 5/331 من حديث سهل بن سعد رفعه: "إياكم ومحقرات الذنوب، وإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاءوا بعود، وجاءوا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه" وإسناده - كما يقول ابن حجر في فتح الباري 11/329: "حسن"، 6/70، 151، من حديث عائشة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله - عز وجل - طالباً".
أخرج ابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الذنوب 2/1417 رقم (4243) نحوه من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالباً)، وعقب عليه البوصيري في مصباح الزجاجة 4/245 بقوله: "هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات، والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب في المحقرات 2/303 من حديث عائشة بلفظ أحمد، وأورده ابن حجر في فتح الباري 11/329 من حديث سهل بن سعد رفعه، وعقب عليه بقوله: "أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد، والطبراني من حديث ابن مسعود، وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: "يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً، وصححه ابن حبان.

والانهزام لغة: الانهزام لغة: الانكسار والتشقق، نقول: انهزم العدو: انكسرت شوكته، وشق صفه، وانتصر عليه، فهو منهزم، ومهزوم، والهزيمة في القتال: الكسر، والفل . (223)

اصطلاحاً:

أما الاحتقار أو الانهزام النفسي في الاصطلاح، فهو: استصغار النفس الخيرة، واستذلالها، والاستهانة بها أو انكسارها أمام ما يمليه عليه أعداؤها من النفس الأمارة بالسوء، ومن شياطين الإنس والجن، ومن الدنيا بشدائدها، وامتحاناتها، ببريقها، وزخارفها وزيناتها، بصورة تشعرها أنها ليست أهلاً لعمل أي بر أو معروف، حتى وإن كان هذا البر وذلك المعروف بسيطاً أو يسيراً.

ثانياً: بعض مظاهر الاحتقار أو الانهزام النفسي مع بيان حكمه في ميزان الإسلام

وللاحتقار أو الانهزام النفسي صور يعرف بها، ومظاهر تدل عليه وأهم هذه الصور، وتلك المظاهر:

- 1 - القعود عن العمل لدين الله - عز وجل - من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، بدعوى أن الشر قد تفشى وانتشر، وأن المنكر قد استفحل وتمكن، ومهما عملنا فلن نغيّر شيئاً، ولن نجني سوى التعب والمشقة.
- 2 - اعتزال المجتمع بل الهجرة إلى الشعاب والأودية ورءوس الجبال اعتماداً على الدعوى التي قدمنا، واحتجاجاً بقوله صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن" . (224)

²²³ - انظر: لسان العرب 12/608 - 611، والمعجم الوسيط 2/985، مادة "هزم" بتصرف كثير.

²²⁴ - الحديث أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 2/1328 رقم (4058)، وعقب عليه البوصيري 4/182 بقوله: "هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وأحمد في المسند 3/30،

3 - الخضوع والانقياد والاستسلام للأهواء، وما يمليه شياطين الجن والإنس، والدنيا ببريقها وزخارفها، بدعوى عدم القدرة على المواجهة.

4 - الخوف من الباطل، والانقياد له في كل ما يقول، وما يفعل، بدعوى أنه يملك كل شيء، ونحن مهما أوتينا من قوة، ومن سلطان فلن نعمل شيئاً، وبالتالي فلن نغير شيئاً.

5 - رفض أي مسئولية قيادية حتى وإن كانت في أمر جزئي بسيط، بدعوى عدم الفقه في المسئوليات، بل عدم القدرة على ما تتطلبه هذه المسئوليات من أعباء، وتبعات، وهلم جرا. والاحتقار بالمعنى الذي ذكرنا من استصغار النفس، والاستهانة بها أمام دور الإنسان، بل المسلم ورسالته في هذه الأرض، قبيح مذموم نفي عنه الشارع الحكيم، إذ يقول الله - تبارك وتعالى: { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (آل عمران).

{ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } (النساء: 104).

{ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالِكُمْ } (محمد).

{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} (البقرة: 150).

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دَارِهِمْ أَوْسَدَ مِنْ أَوَّلِهِمْ وَأَبْتَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخْوَفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (آل عمران).

{الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} (المائدة: 3).

47، 48، 73، 91، 92 كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، واللفظ لابن ماجه، ولأحمد في بعض رواياته.

{ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاحْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا }
(المائدة: 44).

{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } (الأحزاب).

وإذ يقول صلى الله عليه وسلم: " لا يحقر أحدكم نفسه " قالوا:
يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: " يرى أمرا لله عليه
فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله - عز وجل - له يوم
القيامة: ما منعك أن تقول في كذا، وكذا؟ فيقول: خشية
الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى " ، (225) " احرص
على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز... " الحديث . (226)
وانطلاقا من نهي الشارع الحكيم عن الاحتقار أو الانهزام
النفسي زكى يوسف الصديق عليه السلام نفسه، فقال: { قَالَ
اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } (يوسف).
يقول ابن عطية-رحمه الله: " وطلب يوسف للعمل إنما هي
حسبة منه عليه السلام لرغبته في أن يقع العدل... فجائز
للفاضل أن يعمل، وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عوض عنه،
وجائز أيضا للمرء أن يثني على نفسه بالحق إذا جهل أمره " .
(227)

ويقول ابن كثير- رحمه الله:

" وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر
على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وان كان في يد
الجائر أو الكافر " . (228)

ويقول الألوسي- رحمه الله: " وفيه دليل على جواز مدح
الإنسان نفسه بالحق إذا جهل أمره، وجواز طلب الولاية إذا كان

225 - الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب الفتن: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 2/1328
رقم (4058)، وعقب عليه البوصيري 4/182 بقوله: " هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وأحمد في المسند 3/30،
47، 48، 73، 91، 92 كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه مرفوعا، واللفظ لابن ماجه،
ولأحمد في بعض رواياته.

226 - انظر: المحرر 9/324، 325.

227 - نظر: مختصر تفسير ابن كثير 2/254 و تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى في
مزايا القرآن الكريم 4/2/286.

228 - انظر: روح المعاني 13/5/5.

الطالب ممن يقدر علي إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة، وان كان من يد الجائر أو الكافر، وربما يجب عليه الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلا، وكان متعينا لذلك، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها"، وارد في غير ما ذكر" . (229)

ومدح النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بقوله: "أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له...". (230) "أنا سيد الناس يوم القيامة" ، (231) "أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة" ، (232) إلى آخر ما جاء عنه في هذا الشأن. ومدح عثمان رضي الله عنه نفسه بقوله: ... أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه

229 - انظر: روح المعاني 13/5/5.

230 - جزء من حديث أخرجه البخاري في الصحيح: ككتاب النكاح: باب الترغيب في النكاح 7/2، ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤمن بالصوم 2/102 رقم (1401)، والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب النهي عن التبتل 6/60 رقم (3217)، والكبرى: كتاب النكاح: باب النهي عن التبتل 3/264 رقم (5324)، وأحمد في المسند 3/241، 259، 285، كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، ولفظه كما عند البخاري: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا، فأنا أصلي الليل أبدا، وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أتم الذين قلتم: كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

231 - من حديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} 4/163، 164، وكتاب التفسير: باب {ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلَتَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} 6/105 - 107، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها 1/184 - 186 رقم (194)، وكتاب الفصائل: باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق 4/1782 رقم (2278)، والترمذي في السنن: باب صفة القيامة والرفائق والورع: باب ما جاء في الشفاعة 4/537 - 539 رقم (2434)، والدارمي في السنن: المقدمة: باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم من الفضل 1/27، 28، وأحمد في المسند 1/281، 282، 295، 296، 2/435، 436، 540، 3/2، 144، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، إلا الدارمي فإنه عنده من رواية أنس بن مالك، وزاد أحمد رواية له من طريق ابن عباس، وأخرى من طريق أنس بن مالك.

232 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا" 1/188 رقم (196) من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ، وأخرج نحوه ابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الحوض 2/1438 رقم (4301) من حديث أبي سعيد الخدري: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لي حوضا ما بين الكعبة وبين المقدس، أبيض مثل اللبن، أنيته عدد النجوم، وإنني لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة) إلا أن في إسناده عطية العوفي وهو - كما يقول ابن حجر في التقريب 2/24 رقم (216): صدوق يخطئ كثيرا كان شيعيا مدلسا، يعني بهذا: أنه ضعيف كما ذكر الشهاب البوصيري في مصباح الزجاجة 4/259، وأحمد في المسند 2/341، 451 من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ: "ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله - عز وجل - إلي، وأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة).

وسلم قال: "من حفر بئر رومة فله الجنة"، فحفرتها؟ أستم تعلمون أنه قال: "من جهز جيش العسرة فله الجنة"، فجهزتها؟ قال: فصدقوه بما قال . (233)

يقول ابن حجر في شرح هذا الحديث: "وفيه جواز تحدث الرجل بمناقبه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة، وإنما يكره ذلك عند المفاخرة، والمكاثرة، والعجب". (234)

وأستاذن أبو موسى الأشعري علي عائشة رضي الله عنها فأذنت له، فقال لها: يا أماه، أو يا أم المؤمنين، إني أريد أن أسألك عن شيء، وإني استحييك فقالت: لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلا عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أمك، قلت: فما يوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختان، فقد وجب الغسل". (235)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه ثقة بنفسه، وتقديرا لها: "والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه". (236)

قال ابن حجر تعليقا على كلام ابن مسعود هذا:

"وفي الحديث جواز ذكر الإنسان نفسه بما فيه من الفضيلة بقدر الحاجة، ويحمل ما ورد من ذم ذلك على من وقع ذلك منه فخرا أو إعجابا". (237)

وهؤلاء المشاهير علماء المسلمين ولا سيما المؤلفون منهم يثقون بأنفسهم فيمدحونها، حتى يقول الواحد منهم عن نفسه: "ما رأيت مثل نفسي" وهكذا.

233 - انظر: فتح الباري 5/408.

234 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين 1/271، 272 رقم (349) من حديث أبي موسى الأشعري عن عائشة مرفوعا بهذا اللفظ.

235 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين 1/271، 272 رقم (349) من حديث أبي موسى الأشعري عن عائشة مرفوعا بهذا اللفظ.

236 - انظر: فتح الباري 9/51.

237 - سبق تخريجه.

أما الاحتقار أو الانهزام النفسي أمام نعمة الله وعظمته،
فمرغوب فيه محمود، وهو التواضع الذي مدحه الحق - تبارك
وتعالى - في قوله:

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان)، {وَلَقَدْ تَصَرَّكُمُ اللَّهُ بَدْرًا
وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (آل عمران)، وقال:
{قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينِي وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُخْضَرِينَ} (الصفات)، {وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} (يوسف).
ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله:

"الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز، من أتبع
نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني". (238)

وانطلاقاً من دعوة الشارع الحكيم إلى هضم النفس، وأنها لا
تساوي شيئاً في جنب عظمة الله، ونعمته، جاءت الأخبار عن
السلف بهضم النفس، والتواضع لله، وعدم الترفع على عباده
بحال، يقول بكير بن الأشج: إن عبد الله بن سلام خرج من
حائط له بحزمة حطب يحملها، فلما أبصره الناس، قالوا: يا أبا
يوسف، قد كان - يعني في ولدك، وعبيدك - من يكفيك هذا،
قال: أردت أن أجرب قلبي هل ينكر هذا. (239)

ويقول المبارك بن فضالة: إنه سمع الحسين يقول: يا ابن آدم،
طأ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل قبرك، وأنت لم تزل في هدم
عمرك منذ سقطت من بطن أمك. (240)

وأثر عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت 660 هـ): أن أمراء
المماليك الذين اشتراهم الملك نجم الدين أيوب لا زال حكم
الرق مستصحباً عليهم لبيت مال المسلمين، وأنه لا بد من

238 - سبق تخريجه.
239 - لخبر أورده ابن المبارك في كتاب الزهد :: باب التواضع ص 292 رقم (852) من حديث المبارك بن فضالة عن الحسن بهذا اللفظ.
240 - لخبر أورده ابن المبارك في كتاب الزهد :: باب التواضع ص 292 رقم (852) من حديث المبارك بن فضالة عن الحسن بهذا اللفظ.

تصحيح هذا الخطأ الشنيع، وذلك ببيعهم، وشراهم، ثم عتقهم مرة ثانية. وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة، فغضب عليه لهذا الأمر لما فيه من إهانة بعد أن أصبحوا ذوي مناصب في الدولة، وقد استدعى نائب السلطنة الشيخ عز الدين فلم يجبه، فانزعج نائب السلطنة لذلك وقصد بيته مع جماعة لقتله، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فأخبر أباه، فما اكثرث لذلك، ولا تغير، وقال: يا ولدي، أبوك أقل من يقتل في سبيل الله، وخرج الشيخ وهو مطمئن، فحين وقع بصره على النائب يبست يده ووقع السيف منها، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعوا له، وخضع لرأيه في البيع، وقال له: ففيم تصرف ثمننا؟ قال في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا، فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدا واحدا في المزاد العلني، وغالى في ثمنهم، وقبضه، وصرفه في وجوه الخير، ثم أعتقهم بعد ذلك، رحمه الله، ورضي عنه، (241) وعلى أثرها لقب الشيخ ببائع الملوك.

وفحوى هذه القصة: احتقار الشيخ عز الدين نفسه أمام حماية دين الله ومنهجه، وهي من جانب آخر دليل على ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الثقة التامة بالنفس، وعدم احتقارها في مواجهة المنكر، ومجاهدة الباطل.

ثالثا: أسباب الاحتقار أو الانهزام النفسي

وللاحتقار أو الانهزام النفسي أسباب تؤدي إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث:

1 - إهمال المرء من التعويد على المسؤولية بل من التشجيع:

²⁴¹ - انظر: بدائع الصنائع للكساني 4/178، 1799 بتصرف.

فقد يكون إهمال المرء من التعويد على المسؤولية، بل من التشجيع من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهازم النفسي؛ ذلك أن التعويد على المسؤولية، بل التشجيع يمنح المرء ثقة بنفسه، واحتراما وتقديرا لها، بحيث يوقن أنه ليس في الدنيا ما يكون صعبا، أو بعيد المنال، وحين يهمل المرء من التعويد على المسؤولية، ومن التشجيع يوسوس له الشياطين، وتسول له النفس الأمارة بالسوء أنه ما أهمل بهذه الصورة إلا لأنه لا يحسن أو لا يجيد شيئا، فيفقد الثقة بنفسه، بل يأخذ في احتكارها، ويكون الانهازم النفسي.

ولا جرم أن نشير هنا إلى أننا لا نعني بالمسؤولية القيادة، بقدر ما نعني بها التكليف بما يوجب التبعة، والمساءلة، وهذا الذي نعنيه من العموم بحيث يشمل الحياتين جميعا الدنيا والآخرة، فتكليف المرء بالاهتمام ببدنه، وروحه، وعقله، وخلقه، ودعوة الآخرين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، هذه وغيرها مسؤولية.

وكذلك لا نعني بالتشجيع الغناء أو المدح دون قيود أو ضوابط، بل لابد أن يكون محفوقا بالقيود، والضوابط الشرعية، وأهمها: الخلو من الكذب والمبالغة، وأن يكون مبنيا على الظن أو التخمين الغالب لا على اليقين والقطع، فذلك مرده إلى الله - تبارك وتعالى - بأن يقول: أحسب فلانا كذا، والله حسيبه ولا أزكى على الله أحدا، وخير ما يشهد بصحة هذا السبب حركة التاريخ والواقع:

أما حركة التاريخ: فقد طالعتنا من قديم: أن آباءنا وأجدادنا ولا سيما عرب الجزيرة العربية ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الثقة بالنفس، والعزة والإباء والشمم، تلك التي عرفوا بها قبل الإسلام إلا بالتعويد على المسؤولية منذ نعومة أظفارهم بل والتشجيع المستمر، وجاء الإسلام وأكد على هذا، بل حوله من

مجرد أن يكون عادة وعرفا إلى أن يكون شرعة ودينا، فقال الحق - سبحانه:

{ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
(التوبة)، { فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّكَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
(الحجر).

وعرفنا من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه عمل في صباه في رعي الغنم، وفي التجارة، وساعد في تجديد الكعبة، وشارك في حرب الفجار، وحلف الفضول، وأن هذه الأعمال أسهمت في إعداده وتهيئته لحمل أمانة الدعوة، والبلاغ، والجهاد بعد ذلك. وقد أفتى الحنفية بأن للأب أن يؤاجر ابنه الصغير في عمل من الأعمال . . . من باب النظر-أي رعاية المصالح - ولأن ذلك من باب الأديب والتهذيب والرياضة، ومثل الأب في ذلك الوصي، والقاضي . (242)

ولعل سندهم في هذا ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمتي، قلت: يقيل - أي ينام بعد الظهر- ويعني به رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت إلى صبيان يلعبون قال: فجئت أنظر إلى لعبهم، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على الصبيان وهم يلعبون، قال: فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثني إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في فيء - أي ظل - حتى أتته، واحتبست عن أمي عن الإتيان الذي كنت أتيتها فيه، فلما أتيتها قالت: ما حسبك؟ قلت: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة له، قالت: وما هي؟ قلت: هو سر، قالت: فاحفظ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره، قال ثابت - راوي الحديث عن أنس: قال لي أنس:

242 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه 4/1929 رقم (2482)، وأحمد في المسند 3/159، -174، 195، 227، 228، 235، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لأحمد في إحدى رواياته.

لو حدثت به أحدا من الناس -أو لو كنت محدثا به - لحدثك به يا ثابت . (243)

وأما الواقع: فهو ما نرى وما نشاهد من أن أبناء البادية والقرى غالبا ما يكونون أكثر ثقة بأنفسهم من أبناء المدينة أو الحاضرة؛ نظرا لأن قسوة البادية والقرية أوجبت عليهم أن يدرّبوا على المسؤولية في حال الصبا، والأولاد في الغرب الآن يوضعون على المحك، وهم لا يزالون صغارا حتى إذا ما شبوا كان منهم القادة، والمبتكرون، والمخترعون، وهكذا فإن التعويد على المسؤولية بل التشجيع يولد الثقة بالنفس، وإهمال ذلك ينشأ عنه الاحتقار أو الانهزام النفسي.

2 - انتقاص الآخرين وتحقيرهم للمرء على الدوام:

وقد يكون انتقاص الآخرين وتحقيرهم للمرء على الدوام من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو الانهزام النفسي؛ ذلك أن المرء إذا رأى كل من حوله لا يستحسنون منه شيئا، بل يلاحقونه على الدوام بالانتقاص، والاحتقار، والفضيل، فانه غالبا ما يتأثر بذلك، لا سيما إذا كان في المراحل الأولى من حياته أو كان مكلفا بالأمر لأول مرة، وتكون العاقبة أن يصاب بالإحباط، والاحتقار أو الانهزام النفسي.

ولعل هذا من بين الأسرار التي من أجلها نهى الشارع الحكيم أن يحقر المسلم أخاه المسلم أو ينال منه بحال، إذ يقول الحق - تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} (الحجرات: 11).

243 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه 4/1929 رقم (2482)، وأحمد في المسند 3/159، -174، 195، 227، 228، 235، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لأحمد في إحدى رواياته.

وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم... " الحديث . (244)

3 - العيش في وسط معروف بالانهزام واحتقار النفس:

وقد يكون عيش المرء في وسط معروف بالانهزام واحتقار النفس من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع في الاحتقار، والانهزام النفسي، أعم من أن يكون هذا الوسط قريبا وهو البيت، أو بعيدا وهو المجتمع، ذلك أن المرء شديد التأثر بالوسط الذي يعيش فيه، وعليه فإذا كان هذا الوسط محتقرا لنفسه أو منهزما أمامها سرت عداوة إلى الآخرين، وأصيبوا هم كذلك بالاحتقار والانهزام النفسي، وقد نبهنا غير مرة في هذه الآفات إلى ضرورة طهارة ونظافة الوسط الذي يعيش فيه المرء ليسلم من شره، بل ليتداوى إن كانت عدوى الأوساط العفنة قد سرت إليه، وأفسدته.

4 - تمكن حب الدنيا من القلوب:

وقد يكون تمكن حب الدنيا من القلوب من بين الأسباب المؤدية للاحتقار أو الانهزام النفسي، ذلك أن حب الدنيا إذا تمكن من القلوب حمل على الوقوع في المعاصي والسيئات لا محالة، وأقل هذه المعاصي وتلك السيئات، الشح أو البخل بهذه الدنيا. وحين يقع المرء في المعاصي والسيئات على الدوام يسود قلبه، وبصير عليه ران، وربما انتهت الحال إلى قفل هذا القلب، بل الختم عليه والعياذ بالله، ويظهر أثر ذلك في أمور كثيرة أهمها: القلق، والخوف، والاضطراب النفسي، وكذلك الاحتقار والانهزام النفسي. وواقع العصاة اليوم خير ما يشهد بذلك، ولهذا حذر الشارع الحكيم من الوقوع في المعاصي والسيئات،

244 - الحديث سبق تخرجه.

وأرشد من وقع في المعاصي والسيئات - لسبب أو لآخر - أن يبادر بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله.

فقال سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَّاجَرُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَّاجَرُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (المجادلة).

{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } (النساء).

{ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } (الزمر).
{ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } (النساء).

{ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا } (الجن).

{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (الزمر).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفراً له، ومن أصاب من ذلك شيئاً

ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه)،
فبايعناه على ذلك . (245)

5 - دوام إخفاق المرء وفشله في كل ما يقصد:

وقد يكون دوام إخفاق المرء وفشله في كل ما يقصد من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسي؛ ذلك أن للنجاح والتوفيق سنا لا بد من رعايتها، وحين تهمل أو تهدر هذه السنن كلا يكون دوام الإخفاق والفشل، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، وحين يرى المرء نفسه في إخفاق وفشل على الدوام يسقط في يده، وربما انتهى به ذلك إلى احتقار نفسه، وهزيمته أمامها، وخير ما يشهد بذلك واقعنا نحن المسلمين اليوم في صراعنا مع أعدائنا. ومن أجل حماية المسلم من أن تنتهي به الأمور إلى هذا الاحتقار وذلك الانهزام النفسي جاءت دعوة الشارع الحكيم إلى ضرورة الإعداد، والإتقان، والحذر أو أخذ الأهبة والاستعداد في الأمور البسيطة قبل المركبة، والسهلة قبل الصعبة.

قال تعالى:

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلِمُونَ} (الأنفال).
{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (البقرة).

245 - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصيد والذبائح: باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة 3/1548 رقم (1955)، وأبو داود في السنن: كتاب الأضاحي: باب في النهي أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة 3/100 رقم (2815)، والترمذي في السنن: كتاب الديات: باب ما جاء في النهي عن المثلة 4/16 رقم (1409) وعقب عليه الترمذي بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الذبائح: باب إذا ذبحتم فاحسنوا الذبح 2/1058 رقم (3170)، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الضحايا: باب الأمر بإعداد الشفرة 3/62، 63 رقم (4494): وباب حسن الذبح 3/64، 65 رقم (4501 - 4503)، والنسائي في السنن: كتاب الضحايا: باب الأمر بإعداد الشفرة 7/227 رقم (4405): وباب ذكر المنفلتة التي لا يقدر على أخذها 7/229 رقم (4411): وباب حسن الذبح 7/229، 230 رقم (4412 - 4414) والدارمي في السنن: كتاب الأضاحي: باب في حسن الذبيحة 2/82، كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعا.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا }
(النساء).

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء...) الحديث . (246)
"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" . (247)

6 - منافسة ذوي الجِد بالقول دون العمل :

وقد تكون منافسة ذوي الجِد بالقول دون العمل من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع في الاحتقار أو الانهزام النفسي، ذلك أن الحياة دنيوية كانت أو أخروية إنما تبنى أساسا على المنافسة والمسابقة، وقد يكون أحد الطرفين جادا يأخذ الأمور بحزم وعزم وقوة، وينتفع بكل ما لديه من طاقات وإمكانات، ولا تضيع منه لحظة واحدة هباء أو بددا، ويكون الآخر لاهيا لاعبا لا هم له سوى الكلام والقول أما العمل فهو بمعزل عنه تماما، وبمرور الزمان يجد هذا الأخير نفسه أمام الأول عدما أو في حكم العدم، وحينئذ لا يملك إلا أن يكون فريسة للاحتقار أو الانهزام النفسي.

ولعل واقعنا نحن المسلمين اليوم أمام واقع أعدائنا خير ما يشهد بصحة ما نقول، إذ عمل هؤلاء وما زالوا يعملون بالليل والنهار، منتفعين بكل ما منحهم الله من طاقات وإمكانات ومواهب، وقعدنا نحن المسلمين، بل غرقنا في اللهو واللعب حتى سبقونا وتقدموا علينا، بل وأمسكوا بخناقنا، وضيقوا الخناق

²⁴⁶ - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصيد والذبائح: باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة 3/1548 رقم (1955)، وأبو داود في السنن: كتاب الأضاحي: باب في النهي أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة 3/100 رقم (2815)، والترمذي في السنن: كتاب الذبائح: باب ما جاء في النهي عن المثلة 4/16 رقم (1409) وعقب عليه الترمذي بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الذبائح: باب إذا ذبحتم فاحسنوا الذبح 2/1058 رقم (3170)، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الضحايا: باب الأمر بإحداد الشفرة 3/62، رقم (4494): وباب حسن الذبح 3/64، رقم (4501 - 4503)، والنسائي في السنن: كتاب الضحايا: باب الأمر بإحداد الشفرة 7/227 رقم (4405): وباب ذكر المنفلتة التي لا يقدر على أخذها 7/229 رقم (4411): وباب حسن الذبح 7/229، رقم (4412 - 4414) والدارمي في السنن: كتاب الأضاحي: باب في حسن الذبيحة 2/82، كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعا.
²⁴⁷ - انظر: كتاب الفتن 5/126 رقم (19103)، وعنه نقل علاء الدين الهندي في كنز العمال 5/780 رقم (14367).

حول أعناقنا، ولما انتبهنا وأفقنا وأدركنا حقيقة هذا الواقع الأليم المرير واجهناه بالقول دون العمل، وحينئذ لم نستطع السباق أو اللحاق، وصرنا فريسة الاحتقار والانهزام النفسي، وقد جاء عن علي رضي الله عنه خبر فيه راو مجهول إلا أن معناه صحيح موافق لضرورة مواجهة الأعداء بالعمل لا بالقول، وإلا ركب أعناقنا هؤلاء، وكان الاحتلال أو ما يعرف الآن بالاستعمار. إذ أخرج ابن أبي شيبة في: المصنف من حديث الأعمش عن شهر، عن رجل قال: " كنت عريفا في زمن علي، فأمرنا بأمر فقال: أفعلتم ما أمرتكم؟ قلنا: لا، قال: والله لتفعلن ما تؤمرون به، أو لتركين أعناقكم اليهود والنصارى " . (248)

7 - الكبت أو الاستبداد والقهر:

وقد يكون الكبت أو الاستبداد والقهر من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار والانهزام النفسي، ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما بداخله، وفرض عليه على سبيل الاستبداد والقهر ما لا يقره ولا يرضاه، واستمرت الحال هكذا دون انفراج أو تنفيس أصابه اليأس والقنوط ثم الإحباط والاحتقار والانهزام النفسي. ومن أجل الوقاية من الوقوع في ذلك منع الشارع الحكيم القهر، فلا إكراه في الدين، ولا إكراه في تزويج المرأة، ولا إمامة لحاكم أو أمير، أو ذي سلطان إلا بمشورة وبيعة... وهكذا. قال تعالى:

{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } (البقرة: 256).
 { وَيَسْأَوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ } (آل عمران: 159).
 { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } (الشورى: 38).

وعن خنساء بنت خدام الأنصارية: أن أباه زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك، فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له، فرد نكاحها . (249)

²⁴⁸ - انظر: كتاب الفتن 5/126 رقم (19103)، وعنه نقل علاء الدين الهندي في كنز العمال 5/780 رقم (14367).

8 - عدم الثقة بالله وبمنهجه:

وقد يكون عدم الثقة بالله وبمنهجه، من بين الأسباب التي توقع في الاحتقار والانهزام النفسي، ذلك أنه سبحانه ذو الكمال والجلال، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وقد امتن على عباده بمنهاج معصوم فيه سعادة الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبِدْكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} (يونس).

ووعد بإعلاء شأن هذا المنهج، والتمكين له في العالمين، فقال سبحانه:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور).

وطلب سبحانه منهم أن يصدقوا ذلك تصديقا لا شك فيه ولا ريب أبدا، فقال:

{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (التغابن).

ومن شك في الله وفي منهجه، ولم يثق بهما وكله الله إلى نفسه بحيث يبقى وحيدا أمام حزب الشيطان، وحينئذ لا يسعه إلا أن ينهار وأن ينهزم نفسيا، وربما انقلب فصار من حزب هؤلاء الخاسرين .

9 - عدم إدراك نعمة الله في النفس وفي الكون:

²⁴⁹ - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب إذا زوج ابنته وهي كارهة 7/23، وأبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في الثيب 2/233 رقم (2101)، والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب الثيب يزوجه أبوها وهي كارهة 6/86 رقم (3268)، وابن ماجه في السنن: كتاب النكاح: باب من زوج ابنته وهي كارهة 1/602 رقم (1873)، كلهم من حديث الخنساء بنت خدام الانصارية مرفوعا، واللفظ لأبي داود.

وقد يكون عدم إدراك نعمة الله في النفس وفي الكون، من بين الأسباب التي توقع في الاحتقار والانهازم النفسي؛ ذلك أن الله قد امتن علينا في أنفسنا بنعم لا تعد ولا تحصى من السمع، والبصر، والفؤاد، واعتدال القامة، والأيدي، والأرجل، واللسان، والشفيتين، ومن الأعضاء الداخلية ما لا يعلمه إلا هو، كما امتن علينا بمثلها في الكون المحيط بنا من الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، والشجر والدواب، والأنهار والبحار والهواء، والأرض والسماء، وهلم جرا فقال سبحانه:

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (النحل).

{ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } (البلد).

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأْنَا فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً حَلِيبَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } (النحل).

{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (الذاريات).

{ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } (لقمان: 20).

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } (إبراهيم: 34، النحل: 18).

ومن غفل عن هذه النعم، أو لم يدركها إدراكا حقيقيا، ورأى انتفاع الأعداد واستثمارهم لها، فإنه يصاب لا محالة باليأس والإحباط أو الانهازم النفسي.

10 - الغفلة عن العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهازم النفسي:

وقد تكون الغفلة عن العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسي من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع في الاحتقار أو الانهزام النفسي؛ إذ من غفل عن العواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر ما، وقع في هذا الأمر لا محالة، ومن أجل هذا جاءت طائفة كبيرة من المنهجات والمحظورات مقرونة بعواقبها وأثارها، كي يخاف الناس، ويحذروا، بل ويتجنبوا الوقوع في هذه المنهيات، وتلك المحظورات.

11 - الوقوع في المعاصي والسيئات مع الإصرار وإهمال التوبة

وقد يكون الوقوع في المعاصي والسيئات مع الإصرار وإهمال التوبة من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو الانهزام النفسي؛ ذلك أن للمعصية مع الإصرار عليها وإهمال التوبة عواقب ضارة في الدنيا والآخرة. ولعل من أبرز العواقب الدنيوية الابتلاء بالاحتقار أو الانهزام النفسي، وصدق الله إذ يقول: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} (الشورى). {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} (الحج).

12 - قياس واقع الأعداء اليوم بحاضرنا مع الغفلة عن ماضينا:

وقد يكون قياس واقع الأعداء واقع اليوم بحاضرنا مع الغفلة عن ماضينا من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام أم النفسي؛ ذلك أن واقع الأعداء اليوم بالقياس إلى حاضرنا ينطق بأنهم يتربعون على عرش البشرية، ويوجهونها كما يريدون، وأنا لا نعدو أن نكون ذيو لا أو أذنا با لهم، ولكن هذا الواقع يتغير، ولا يتجاوز أن يكون صفرا بالإضافة إلى ماضينا المشرق الزاهر الذي يصوره الشاعر بقوله:

ملكنا هذه الدنيا قرونا *** وأخضعها جدود خالدونا
 وسطرنا صحائف من ضياء *** فما نسي الزمان ولا نسينا
 حملناها سيوفا لامعات *** غداة الروع تأبى أن تلينا
 إذا خرجت من الأغماد يوما *** رأيت الهون والفتح المبينا
 وكنا حين يرمينا أناس *** نؤدبهم أباة قادرينا
 وكنا حين يأخذنا ولي *** بطغيان ندوس له الجبينا
 تفيض قلوبنا بالهدي بأسا *** فما نعصي عن الظلم الجفونا
 بنينا حقبة في الأرض ملكا *** يدعّمه شباب طامحونا
 شباب ذللوا سبل المعالي *** وما عرفوا سوى الإسلام ديننا
 تعهدهم فأنبتهم نباتا كريما *** طاب في الدنيا غصونا
 هم وردوا الحياض مباركات *** فسالت عندهم ماء معيننا
 إذا شهدوا الوغى كانوا كماء *** يدكون المعازل والحصونا
 وإن جن المساء فلا تراهم *** من الإشفاق إلا ساجدنا
 شباب لم تحطمه الليالي *** ولم يسلم إلى الخصم العريننا
 ولم تشهدهم الأقداح يوما *** وقد ملأوا نواديبهم مجونا
 عرفوا الأغاني مائعات *** ولكن العلا صنعت لحونا
 وقد دانوا بأعظمهم نضالا *** وعلمنا، لا بأجرئهم عيونا
 فيتحدون أخلاقا عذابا *** ويأترفون مجتمعا رزيننا
 فما عرف الخلاعة في بنات *** ولا عرف التخنت في بنينا
 ولم يتشدقوا بقشور علم *** ولم يتقيبوا في الملحديننا
 ولم يتبجحوا كل أمر *** خطير، كي يقال مثقفونا
 كذلك أخرج الإسلام *** قومي شبابا مخلصا حرا أميننا
 وعلمه الكرامة كيف تبنى *** فيأبى أن يقيد أو يهونا (250)

رابعاً: آثاراً لاحتقار أو الانهزام النفسي:

وللاحتقار أو الانهزام النفسي آثار ضارة وعواقب مهلكة، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامي:

أ - على العاملين :

أما على العاملين فكثيرة، وأهمها:

1 - مدهانة بل الارتداء في أحضان الظالمين:

ذلك أن من ابتلى بالاحتقار أو الانهزام النفسي يتصور أن الظالمين والجبارين بمقدورهم أن يعملوا له شيئاً، فيداهنهم بل ويرتمي في أحضانهم، على نحو ما نشهده في عالم المسلمين اليوم من مدهانة وانحناء قيادات، وتمريغها لوجهها وأنفها في التراب لا لشيء إلا الخوف والرجاء من هؤلاء الظالمين المتجبرين، وأولئك في حقيقة الحال لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً عن أن يملكوا ذلك لغيرهم من الخلق.

2 - الغزو في النفس، وفي الحرمات:

ذلك أن الاحتقار أو الانهزام النفسي يفتح الطريق أمام الماكرين والمتربصين لغزو هؤلاء المحتقرين أو المنهزمين نفسياً، في أنفسهم وفي حرماتهم، ومقدساتهم من دين، ونسل، وعرض، ومال، وأوطان، على نحو ما يصنعه أعداؤنا بنا اليوم في فلسطين، وفي غيرها من كل بقاع العالم، وإذا غزى الإنسان في نفسه، وفي حرماته فماذا بقي له، وما قيمة الحياة بعد ذلك؟

3 - زيادة الرصيد من الإثم:

وذلك أنه باحتقاره أو انهزامه نفسيا قد فتح الباب أمام كثيرين ممن لديهم استعداد للوقوع في مثل هذه الآفة كي يحاكوه، ويصنعوا مثله لا سيما إذا كان هو في موقع الأسوة والقدوة ويتحمل هو إثم هؤلاء جميعا انطلاقا من قوله صلى الله عليه وسلم: "... ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" . (251)

4 - الخسران المبين في الآخرة ما بقى الإصرار ولم تكن توبة:

إذ هو بتضييعه لنفسه ولغيره، قد حمل وزرا وإثما عظيما ويلقي ربه بهذا كله، ولا إقلاع ولا توبة فتكون النار والعياذ بالله، وهذا هو الخسران المبين حقا، إلا أن تتداركه رحمة الله، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} (الزمر).

ب - على العمل الإسلامي:

وأما على العمل الإسلامي فكثيرة أيضا، وأهمها:

1 - قلة كسب الأنصار والمؤيدين:

ذلك أن الناس يتأثرون ويقتدون بالأقوياء الواثقين من أنفسهم وبربهم ومناهجهم، أما المحتقرون أو المنهزمون نفسيا فإن الناس لا يابهنون بهم، ولا يستجيبون لهم، وبذلك يقل حجم الأنصار والمؤيدين.

2 - الفرقة والتمزق:

إذ وجود الاحتقار أو الانهزام النفسي في داخل الصف يحدث انقسامًا في هذا الصف ما بين مزيد نصير وظهير، وما بين

²⁵¹ - انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي 1/220، 2221، 3/688 - 690 نقلًا عن ابن جرير بتصريف كثير.

معارض منكر وبعيد، الأمر الذي يفتح الباب أمام المتربصين من أعداء الله للولوج، والإطباق والتطويق.

3 - كثرة التكاليف وطول الطريق:

وهذا شيء بدهي ونتيجة حتمية طبيعية لقلة كسب الأنصار والمؤيدين، ولشيوع الفرقة والتمزق .

خامسا: علاج الاحتقار أو الانهزام النفسي:

وفي ضوء ما قدمنا من أسباب وبواعث للاحتقار أو الانهزام النفسي، يمكن وصف العلاج بل الوقاية، وذلك على هذا النحو:

1 - شغل أوقات الفراغ، والقضاء على البطالة بكل ما هو نافع ومفيد، وميادين الحياة باتساعها وتنوعها تجعل لكل واحد في الناس وظيفة وعملا، ومن لا يصلح لهذا العمل يصلح لذاك، وهكذا كانت سيرته مع أصحابه، لا يدعهم في بطالة أو فارغين من العمل، ويحرص أن يكون كل واحد في العمل الذي يتناسب مع جهده، وطاقاته، وإمكاناته، وبهذا حماهم من الاحتقار أو الانهزام النفسي.

2 - تجنب انتقاص الآخرين، وتحقيرهم ما أمكن، كي تغلق الباب بذلك في وجه من يسولون أو يزينون للمرء الاحتقار أو الانهزام النفسي.

3 - الانسلاخ من الوسط المعروف بالاحتقار والانهزام النفسي، ثم الارتقاء بين الوسط المعروف بالقوة، والشجاعة، والثقة بالله، وبمنهجه، وبرسوله، وبالنفس، فإن ذلك من شأنه، أن يعين على التخلص، بل الوقاية من الاحتقار أو الانهزام النفسي.

4 - العمل بكل وسيلة ممكنة على إخراج حب الدنيا من القلوب ولا بأس أن تصير هذه الدنيا في اليد، ما دامت من حلال، وما دامت بعزة نفس، وبغير تكالب، وما دام تعاطيها وسطا بين الإسراف والتقتير، ولا يضيع حق الله فيها، فإن المرء إذا نجح مع

نفسه في هذا الباب، سهل عليه التخلص بل الوقاية من الاحتقار أو الانهزام النفسي.

5 - مواجهة من يعملون على إضعافنا والنيل منا، بالعمل الدؤوب مع الإتيان والجد تجنباً للفشل والإخفاق من ناحية، ومقابلة للوسيلة العملية المتقنة عند هؤلاء بمثلها من ناحية أخرى.

6 - منح الناس حقهم في التعبير عن آرائهم، وعما بداخلهم، وتقديم ذلك على الطعام، والشراب، واللباس، والسكن، فإن هذا من شأنه أن يقضي على الاحتقار أو الانهزام النفسي، وربما أسهم في غرس الثقة في النفوس من جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

7 - التعرف عن قرب على الله، وعلى رسوله، وعلى منهجه، بدوام النظر في آيات الله المنظورة، والمسطورة، فإن هذا من شأنه أن يزرع الثقة في النفوس، بعد أن يخلصها من الاحتقار أو الانهزام النفسي.

8 - استشعار نعمة الله في الكون، وفي النفس الظاهر منها والباطن، الدقيق منها والجليل، والقرآن الكريم يقودنا عملياً إلى ما ينبغي أن نستشعره ونبصره من هذه النعم، بل يقودنا إلى الثمرة المرجوة من وراء ذلك، وهي معرفة الله، والثقة به، وبمنهجه، والنزول على حكم هذا المنهج في كل شيء عن طواعية ورضاً.

9- الاحتراز من المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، مع الحرص على الإنابة، والتوبة عند اقتراف شيء منها، فإن هذا من شأنه أن يطهر النفس، ويزكيها، ويمنحها الثقة والقوة.

10 - دوام النظر في قصص النبيين، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم واتباعهم من الدعاة والمجاهدين، وحسبنا قصة موسى عليه السلام حين خرج من مصر ومعه قومه من بني إسرائيل وتبعهم فرعون وقومه وبوغتوا بالبحر، وأصبحوا

محصورين بين البحر، وبين العدو، حتى قال قائلهم : إنا لمدركون، ولكن موسى بقي قويا ثابتا بتثبيت الله له، معلنا أن الله لن يتركه، ولن يتخلى عنه لحظة واحدة، وصدق الله ما أعلنه حين قال :

{ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ وَأُنَجِّينَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ } (الشعراء).

وبقيت محلا للعبطة والعبرة إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة، { إن في ذلك لآية } (الشعراء).

وحسبنا أيضا موقفه صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة حين قال الصديق: يا نبي الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرأنا. فرد عليه قائلا: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا، وصدق الله ذلك في قوله: { إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (التوبة).

وموقفه كذلك من سراقه بن مالك يوم الهجرة حين قال له: "هل لك أن تكتم عني، وأعدك سواري كسرى وقيصر؟".

وقديما لما قدم ربعي بن عامر في بساطته - لباسا ومركبا -

على الفرس يريد الدخول على رستم، حين طلب رجلا يعرف

منه ماذا يريد المسلمون، دخل في سلاحه يدوس بفرسه

البسط إلى أن انتهى إلى آخرها ونزل عنها وربطها بوسادتين،

وأراد الدخول على رستم، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال - في

عزة وإباء -: إني لم أتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم

دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد، وإلا رجعت، فأخبروا

رستم، فقال : ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد؟ فأقبل يتوكأ على

رمحه حتى خرق النمارق والبسط، فلما دنا من رستم تعلق به

الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما

حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى، فقال رستم: لقد سمعت مقالتم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه، وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم؟ يوما، أو يومين، قال: لا، بل حتى نكتب أهل رأينا، ورؤساء قومنا، فقال: ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك، وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال رستم: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم، فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم، لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكّل، ويصونون الأحساب. (252)

وما كان ربعي بن عامر فريدا في هذه العزة والقوة النفسية، بل كان كل الصحابة هكذا، وتوارثها المسلمون كابرا عن كابر، حتى كانت عصور الضعف والانحطاط، فتغيرت الصورة، وتبدل الموقف، وجاءت الحركة الإسلامية، وإذا العزة تبعث من جديد، وإذا القوة النفسية هي الأصل والأساس في الانتماء لهذه الحركة.

جاء في مذكرات الدعوة والداعية قول واضعها، ومشيد أركانها: تحت عنوان: "نماذج من تصرفات الرعيل الأول":

252 - انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي 1/220، 2221، 3/688 - 690 نقلا عن ابن جرير بتصريف كثير.

"كان هؤلاء الإخوة مثلاً رائعا، ونماذج طيبة من التمسك بأحكام الإسلام" الحنيف في كل تصرفاتهم، والتأثر بأخلاقه، ومشاعره فيما يصدر عنهم. من قول أو عمل، سواء أكان ذلك مع أنفسهم، أم مع غيرهم من الناس استدعى المسيو سولنت باشمهندس القنال - يعنى قناة السويس بمصر - ورئيس قسم السكسيكون: الأخ حافظ عبد الحميد-أحد الستة الأول الذين كانوا نواة الحركة الإسلامية في مصر - في ذي القعدة (1347 هـ مارس 1928 م) ليصلح له بعض أدوات النجارة في منزله، وسأله عما يطلب من أجر، فقال: 130 قرشا (بالعملة المصرية)، فقال المسيو سولنت - بالعربي: أنت حرامي، فتمالك الأخ نفسه، وقال له بكل هدوء: ولماذا؟ فقال: لأنك تأخذ أكثر من حَقِّك، فقال له: لن آخذ منك شيئا، ومع ذلك، فإنك تستطيع أن تسأل أحد المهندسين من مرؤوسيك، فإن رأى أنني طلبت منك أكثر من القدر المناسب فإن عقوبتي أن أقوم بالعمل مجانا، وإن رأى أنني طلبت ما يصح أن أطلب فأسامحك في الزيادة.

واستدعى الرجل فعلا مهندسا، وسأله، فقدر أن العمل يستوجب 205 قرش، فعرفه المسيو سولنت، وأمر الأخ حافظ أن يبتدئ العمل، فقال له: سأفعل، ولكنك أهنتني، فعليك أن تعتذر، وأن تسحب كلمتك، فاستشاط الرجل غضبا، وغلبه الطابع الفرنسي الجاد، وأخذته العزة بالإثم، وقال: تريد أن أعتذر لك، ومن أنت؟ لو كان الملك فؤاد نفسه - يقصد حاكم مصر آنذاك - ما اعتذرت له، فقال حافظ على هدوء أيضا: وهذه غلطة أخرى يا مسيو سولنت، فأنت في بلد الملك فؤاد، وكان أدب الضيافة وعرقان الجميل يفرضان عليك ألا تقول مثل هذا الكلام، وأنا لا أسمح لك أن تذكر اسمه إلا بكل أدب واحترام. فتركه، وأخذ يتمشى في البهو الفسيح، ويداه في جيب بنطلونه، ووضع حافظ عدته، وجلس على كرسي، واتكأ على منضدة، وسادت فترة هدوء لا يتخللها إلا وقع أقدام المسيو التائر الحائر،

وبعد قليل، تقدم من حافظ، وقال له: افرض أنني لم أعتذر إليك فماذا تفعل؟ فقال: الأمر هين، سأكتب تقريراً إلى قنصلكم هنا، وإلى سفارتكم أولاً، ثم إلى مجلس إدارة قناة السويس بباريس، ثم الجرائد الفرنسية المحلية والأجنبية، ثم أتراقب كل قادم من أعضاء هذا المجلس، فأشكوك إليه، فإذا لم أصل إلى حقي بعد ذلك، استطعت أن أهينك في الشارع، وعلى ملا من الناس، وأكون بذلك قد وصلت إلى ما أريد، ولا تنتظر أن أشكوك إلى الحكومة المصرية التي قيدتموها بسلاسل الامتيازات الأجنبية الظالمة، ولكني لن أهدأ حتى أصل إلى حقي بأي طريق.

فقال الرجل: يظهر أنني أتكلم مع " أفوكاتو- أي محام - لا نجار".

ألا تعلم أنني كبير المهندسين في قناة السويس، فكيف تتصور أن أعتذر لك؟ فقال حافظ: وألا تعلم أن قناة السويس في وطني، لا في وطنك، وأن مدة استيلائكم عليها مؤقتة، وستنتهي، ثم تعود إلينا، فتكون أنت وأمثالك موظفين عندنا، فكيف تتصور أن أدع حقي لك؟ وانصرف الرجل إلى مشيته الأولى. وبعد فترة عاد مرة ثانية، وعلى وجهه أمارات الثائر، وطرق المنضدة بيده في عنف مرات، وهو يقول: أعتذر يا حافظ سحبت كلمتي، فقام الأخ حافظ بكل هدوء، وقال: متشكر يا مسيو سولنت، وزاول عمله حتى أتمه.

وبعد الانتهاء أعطاه المسيو سولنت 150 قرشا، فأخذ منها 135 قرشا ورد له العشرين، فقال له: خذها بقشيشا- أي إكراما- فقال: لا، لا، حتى لا أخذ أكثر من حقي، فأكون "حرامي"، فدهش الرجل، وقال: إني مستغرب لماذا لا يكون الصانع أولاد العرب مثلك؟ أنت: "فاميلي محمد". فقال حافظ: يا مسيو سولنت، كل المسلمين "فاميلي محمد" ولكن الكثير منهم عاشروا الخواجات، وقلدوهم ففسدت

أخلاقهم، فلم يرد الرجل بأكثر من أن مديده مصافحا، قائلا:
متشكر، متشكر، كثر خيرك، وفيها الإذن بالانصراف). (253)
وقال تحت عنوان: "الدعوة في جباسات البلاح": "اتصل بعض
عمال الجباسات الفضلاء بالإخوان بالإسماعيلية، فنقلوا عنه
الفكرة إلى إخوانهم، ودعيت إلى زيارة الجباسات، وهناك بايعت
الإخوان على الدعوة، فكانت هذه البيعة نواة الفكر في هذا
المكان النافي.

وبعد قليل طلب العمال إلى الشركة أن تبني لهم مسجدا، إذ
كان عددهم أكثر من ثلاثمائة عامل، وفعلا استجابت الشركة
لمطلبهم، وبنى المسجد وطلبت الشركة من الجماعة
بالإسماعيلية انتداب أخ من العلماء يقوم بالأمانة والتدريس.
فانتدب لهذه المهمة فضيلة الأخ المفضل الأستاذ محمد فرغلي
- المدرس بمعهد حراء آنذاك (أحد الذين أعدتهم ثورة يوليو
المباركة في مصر عام 1954 م بعد حادثة المنشية الملفقة).
وصل الأستاذ فرغلي إلى البلاح، وتسلم المسجد، وأعد له سكنا
خاص بجواره، ووصل روحه القوي المؤثر بأرواح هؤلاء العمال
الطيبين، فلم تمض عدة أسابيع وجيزة حتى ارتفع مستواهم
الفكري، والنفساني، والاجتماعي ارتفاعا عجيبا.
لقد أدركوا قيمة أنفسهم، وعرفوا سمو وظيفتهم في الحياة،
وقدروا فضل إنسانيتهم، فنزع من قلوبهم الخوف، والذل،
والضعف، والوهن، واعتزوا بالإيمان بالله، وبإدراك وظيفتهم
الإنسانية في هذه الحياة، خلافة الله في أرضه "فجدوا في
عملهم اقتداء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله
يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

ثم عفوا عما ليس لهم، فلم تأسرهم المطاعم التافهة، ولم
تقيدهم الشهوات الحقيرة، وصار أحدهم يقف أمام رئيسه عالي
الرأس في أدب، شامخ الأنف في وقار، يحدثه في حجة
ومنطق، لا يقول ولا يقبل منه كلمة نابية، أو لفظة جافية، أو

مظهرا من مظاهر التحقير، والاستصغار، كما كان شأنهم من قبل. وتجمعوا على الأخوة، واتحدوا على الحب، والجد والأمانة، ويظهر أن هذه السياسة لم تعجب الرؤساء، وقرروا أنه إذا استمر الحال على ذلك ستكون السلطة كلها لهذا الشيخ، ولن يستطيع أحد بعد ذلك أن يكبح جماحه، وجماح العمال. ظن الرؤساء هذا في الشركة، وفكروا في إقصاء هذا الشيخ القوي الشكيمة عن العمل، وأرسل إليه الرئيس المباشر، فلما توجه إليه قال له: إن المدير أخبرني بأن الشركة قد استغنت عن خدماتك، وأنها تفكر في انتداب أحد العمال للقيام بعملكم في المسجد، وهذا حسابكم إلى اليوم حسب أمر المدير. فكان جواب الشيخ له بكل هدوء: ما كنت أظن يا مسيو فرانسوا أنني موظف بشركة جبايات البلاح، ولو كنت أعلم هذا ما قبلت العمل معها، ولكني أعلم أنني موظف من قبل الإخوان المسلمين بالإسماعيلية، وأتقاضى مرتبي منهم محولا عليكم، وأنا متعاقد معهم لا معكم على هذا الوضع، وأنا لا أقبل منك مرتبا، ولا حسابا، ولا أترك عملي في المسجد، ولا بالقوة، إلا إذا أمرني بذلك رئيس الجمعية التي انتدبتني هنا، وهو أمامكم في الإسماعيلية، فاتفقوا معه كما تريدون، واستأذن، وانصرف، وسقط في يد إدارة الشركة، وصبرت أياما، لعل الشيخ يطلب منها مرتبه، ولكنه كان قد اتصل بي في الإسماعيلية، فأوصيته بالتمسك بموقفه، وألا يدع مكانه بحال، وحثه معقوله، ولا شيء لهم عنده .

لجأت الشركة إلى الإدارة، واتصل مديرها المسيو مانيو بمحافظ القنال الذي اتصل بدوره بالمأمور بالإسماعيلية، وأوصاه أن يقوم على رأس قوة لعلاج الموقف، وحضر المأمور بقوته، وجلس في مكتب المدير. وأرسل في طلب الشيخ الذي اعتصم بالمسجد، وأجاب الرسول: لا حاجة لي عند المأمور، ولا عند المدير، وعملي بالمسجد، فإذا كان لأحدهما حاجة فليحضر لي، وعلى هذا فقد حضر المأمور إلى الشيخ، وأخذ يطلب إليه

أن يستجيب لمطالب المدير، ويترك العمل ويعود إلى الإسماعيلية.

فأجاب بمثل ما تقدم، وقال له: تستطيع أن تأتيني من الإسماعيلية بكلمة واحدة في خطاب، فأنصرف، ولكنك إذا أردت استخدام القوة، فلك أن تفعل ما تشاء، ولكني لن أخرج من هنا إلا جثة لاحتراق بها، ووصل النبا إلى العمال، فتركوا العمل في لحظة واحدة، وأقبلوا متجمهرين صاخبين، وخشى المأمور العاقبة، فترك الموقف، وعاد إلى الإسماعيلية، واتصل بي للتفاهم على الحل.

ولكنني اعتذرت له بأنني مضطر إلى التفكير في الأمر، وعقد مجلس إدارة الجمعية للنظر، ثم أجيبه بعد ذلك، وفي هذه الأثناء يؤسفني أن أقول: إنني حضرت إلى القاهرة لمقابلة العضو المصري الوحيد في مجلس إدارة الشركة، فوجدت منه كل إعراض عن مصالح العمال، وكل انحياز إلى آراء الشركة ومديرها، وكل تجرد من أي عاطفة فيها معني الغيرة الوطنية، قابلت بعد ذلك مدير الشركة، وسألته عما ينقمه من فضيلة الشيخ، فلم أجد عنده إلا أنهم يريدون شخصا يستسلم لمطالبهم، وكان من كلامه: إنني صديق لكثير من زعماء المسلمين، ولقد قضيت في الجزائر عشرين سنة، ولكني لم أجد منهم أحدا كهذا الشيخ الذي ينفذ علينا أحكاما عسكرية، كأنه جنرال تماما، فناقشته في هذا الكلام وأفهمته أنه مخطئ وأن الشركات تقسوا على العمال، وتنقص من حقوقهم وتستصغر إنسانيتهم، وتبخل عليهم، وتقترب في أجورهم، في الوقت الذي يتضاعف ربحها، ويتكدس، وأن من الواجب علاج هذه الحال بعلاج نظم هذه الشركات، ووجوب قناعتها باليسير من الربح.

واتفقنا أخيرا على أن يبقى الأستاذ الشيخ فرغلي شهرين حيث هو، وأن تقوم الشركة بتكريمه عند انتهاء هذه المدة، وأن تطلب رسميا من الإخوان من يحل محله من المشايخ، وأن

تضاعف للشيخ الجديد راتبه، وتعنى بسكنه، ومطالبه وفي نهاية
المدة عاد فضيلة الشيخ فرغلي وتسلم مكانه فضيلة الأستاذ
الشيخ شافعي أحمد، واستمرت الدعوة تشق طريقها في هذه
الصحراء باسم الله مجريها، ومرساها . (254)

إن مثل هذا القصاص يولد في النفس معنى الاقتداء والتأسي أو
على الأقل المحاكاة والتشبه وبمرور الزمن يمكن القضاء على
الاحتقار أو الانهزام النفسي.

11 - النظر بامعان ودقة في العواقب المترتبة على الاحتقار أو
الانهزام النفسي، الدنيوية والأخروية، الفردية والجماعية، على
النحو الذي أسلفنا، فربما كان لذلك دور كبير في القضاء على
الاحتقار أو الانهزام النفسي.

12 - قيام ولي الأمر بواجبه من رعاية نفسه أولا، وتربيتها على
الإسلام الصحيح الذي يمنح العزة، والكرامة، والثقة بالنفس، ثم
فتح المجالات وحمايتها، ورعايتها لتربية الأمة جميعا على هذا
الإسلام، فيسهم بذلك في اقتلاع جذور الاحتقار أو الانهزام من
داخل النفس، ويغرس مكانها الشجاعة، والقوة والعزة النفسية.

13 - عدم الانبهار بحاضر الأعداء في مدنيتهم المادية التي
يعيشونها الآن، وعدم تقليدهم كذلك فيما هم عليه من تأخر
وانحطاط خلقي، مع اليقين أن هذا الحاضر إلى زوال لأنه مبني
على غير أساس صحيح، وما كان كذلك لا يدوم طويلا، وأن الخير
للمسلم أن يعيش حاضره المتميز على أساس من كتاب الله،
ومن سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن ماضيه المشرق
الزاهر، ومن العمل الصادق الدؤوب بالليل والنهار حتى يقضي
الله أمرا كان مفعولا، فإن لذلك دورا كبيرا فن القضاء على
الاحتقار أو الانهزام النفسي من جديد على معنى القوة والعزة
الإسلامية.

14 - وأخيرا، الاستعانة بالله، ودوام الضراعة إليه أن يخلصه
ويخلص كل مسلم من آفة الاحتقار أو الانهزام النفسي، وهو

254 - سبق تخريجه في الجزء الثالث "آفة التسوييف".

سبحانه يعين من يصدق في الاستعانة به، واللجوء إليه، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان كثيرا ما يدعو بهذا الدعاء في الصباح والمساء:

"اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم...".
وفي رواية ثانية: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال".
وفي رواية ثالثة: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال". (255)

²⁵⁵ - سبق تخريجه في الجزء الثالث "آفة التسوييف".